عشرون وصية على طريق الجهاد

بقلم : أبو يوسف سليمان جاسم بوغيث
الناطق الرسمي لتنظيم القاعدة (2001)
مع مقدمة بقلم : محفوظ بن الوالد (أبوحفص الموريتاني)

المقدمة

بقلم : محفوظ بن الوالد (أبوحفص الموريتاني)

الحمدُ لله الذي جعل الجهادَ باباً من أبواب الجنة يُذهب به الهمَّ والغمَّ والحُزن والكَرب، ويرفعُ به الدرجات، ويمحو به لمن أخلصَ السيئات، ويرفعُ من قُتل فيه في الجنان أعلى الدرجات، والصلاة والسلام على من ودَّ أن يُقتل في سبيل الله ثم يحيا، ثم يقتل ثم يحيا، ثم يقتل، وعلى آله الطيبين أولي السَّبقِ في كل ميدان، والجُهد في كل زمان، الرَّافعين عَلَمَ الجهاد في كُلِّ مكان، فَبِهِم اقتدى الخَلْقُ وعلى دَرْبِهم سارَ الرَّكبُ، وإلى ما نالُوا يَسعى ألوا الفَضْل والسَّبق.

وأشهدُ أنْ لا إله إلاَّ اللهُ وحدهُ لاشريكَ لهُ وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُه -صَلَّى اللهُ وسَلَّمَ عَلَيْهِ- وعلى آله الطيبين وصحابته أجمعين والتَّابِعين لهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

[سلسلة إحياء التربية الجهادية] هذا ما استَّقَرَّت عليه نَفسي أن أُسميها - بعد استخارةِ مولاي جلَّ وتعالى- فالساحةُ الجهاديةُ بعد ثلاثةِ عُقودٍ من الزَّمنِ خاضَ فُرسانُها خلالها المعارك تلو المعارك، وساحوا خلالها في البُلدان شرقاً وغرباً نصرة لدينهم وعقيدتهم وإخوانهم، راجين من وراءِ ذلك إحدى الحُسنيين النَّصر أو الشهادة، وقبل ذلك كُله وبعد ذلك كُله الأجرَ والثوابَ من الغفور التَّواب- رأيتُ بعدَ تِلك العُقود الثَّلاثة - أن السَّاحة الجهادية تخلو من التَّوجيه التَّربوي الكافي، وتَفتقِرُ إليه بشكل كبيرٍ، إلاَّ مما تَرَكَه الشيخ المجاهد الشهيد عبد الله عزام -رَحِمَهُ اللهُ- في بعضٍ أشرطتِه المسموعة وكُتبه المطبوعة، وهي على ما فيها من القِيمةِ التَّربوية والعلمية الشيء المبارك - ولا شك في ذلك - إلا أنها لا تكفي، فالساحةُ بِفضلِ الله تَتَّسِعُ وأنصارها وفرسانُها يزيدون، فكان لزاماً أن تصدر مثل هذه السِّلسلة من المواضيع التربوية لِتَضبُط المسار، وتُوجِّه العَمل، وتُداوي الأمراض، وتُبلسم الجراح، وتُصقل القلوب، وتَعْرُضُ لما تحتاجه الساحة وأفرادها من مواضيع تُذكِّرهم وتُعينهم وتَرتَقي بِهم إلى المستوى الذي يَليقُ بِهم، حيثُ اعتقادي الجازم بِفضلهم وفضلِ ما يقومون به، وجُهدهم وعَطائهم في سبيل دينهم وأُمَّتِهم، فمنهم أكرم الخلق وهم الشهداء، ومنهم أصحابُ الدماء المِسْكِيَّة يوم القيامة وهم الجرحى، ومنهم من صدقوا الله تعالى وهم ينتظرون نحبهم.

وبين يديك أيها الفارسُ الحُر الكتابَ الأول من هذه السلسلة وهو بعنوان:

[الزاد التربوي للمجاهد: عشرون وصية على طريق الجهاد] تعرضتُ من خلالها إلى أهمِّ المواضيع التي أرى أن التَّناصُح فيها أمراً مهماً تحتاجُه القيادة الجهادية وأفرادها، وتَتَلمَّسُ أهم الجوانب التربوية التي يجب التركيز عليها وأبرازها للأخ المجاهد أياً كان موقِعُه ومنصُبه، وتذكيرُهُ بها بين الحينِ والآخر سواء كان ذلك في مجلس التَّخطيط، أو مَضَافة الاستقبال، أو مُعسكر التدريب، أو ساحة القتال، ولا أزعم أنَّنِي بلغتُ بذلك غاية المطلوب، فلعل من إخواني من يزيدُ ويُحْسِن ويُكمل في هذا المجال، ولكن هذا ما جَهَدتُ واجْتَهدتُ فيه بعد التجربة التي عِشتُها في مسيرة الجهاد، ومِحنة السجن، وسنواتِ الغُربة والتي أسأل الله أن تُختم بالشهادة.

الوصية الأولى

أخلص لله نيّتُك

آكِلُ الإخلاص..

يروعُكَ ويهولُكَ ذلك المشهدِ المؤلِم عندما تتخيلُهُ حقيقةً ماثلةً أمامكَ بعد أن تَلقَّفَتْهُ أُذنيك وأنت به موقِن!!

إنه مشهدُ أوَّل خَلْقِ الله تُسعَّرُ بهم النَّارُ يوم القيامةِ !!

ثمَّ تتساءلُ كيف هانَ عليهم ؟! بل كيف تحمَّلوا أن يكون ذلك مصيرُهم؛ وهم الذين لن يَبلُغَ أحدٌ مبلغهم من الجُهدِ والتَّعبِ والصَّبر في سبيلِ ما حصَّلوا؟!

(قارئٌ للقرآن وشهيدٌ ومنفقٌ للمال!!)

كم تعِب الأوَّلُ وكم سهِرَ وكم أعادَ حتى حفظَ القرآن؟!

كم صبر الثاني وكم صابر ورابط حتى لقي العدو ثمَّ استشهد؟!

وكم تحمَّل الثالث السَّعي والكدَّ حتى حصَّل المال ثمَّ أنفق؟!

ثمَّ ما الذي حدث؟! ما الذي تغيَّر؟! وما الخللِ الذي أوْدى بعملِ هؤلاءِ ثمَّ بحياتِهم إلى بئس المصير؟!

إنّهُ الشركُ الخفي، أخوفُ ما كان يخافهُ علينا رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- ..

إنَّه الرياء آكِلُ الإخلاصِ وملتهِمُ الأعمال ومُفسدُ النّيات.

إنَّه السَّعيُ الحثيث والكدُّ المريرِ والجُهد البالِغ، من أجل كلمةٍ واحدة أوإشارة واحدة: (هو قارئ..هو شجاع..هو منفق) وقد قيل!! ثمَّ ماذا؟![1]

---

[1] انظر أصل الحديث عند ابن حبان في صحيحه برقم408

أضْخم قضيَّة..

إنَّ أضخمَ قضيةٍ واجهها الوِجدانُ الإنساني ويواجِهُها, وكانت ولازالت وستظلُّ القضيةَ المحورية التي دَفعَ الإسلامُ بها دفعاً لتقويمِ سلوك الإنسان وتصرفاتِه, وتصحيحِ نظرته وتصوراته هي النية. وهي الأصلُ الذي لا يتفرَّعُ, والرُّكنُ الذي لايتجزئ، وحجرُ الزَّاوية لأي عملٍ من الأعمال. بها يَكْبُرُ العمل ويصُحُّ, وبِدونِها يَضيعُ ويَفْسُد, وعليها يكون الجزاءُ والحساب, والثوابُ والعِقاب!!."قلِ اللهَ أعْبُدُ مُخْلِصَاً لَهُ دِيْنِي"[1] ..

طالما صاح بها المحاسبي رحمه الله مُنبّهاً ومذكّراً: (افحص عن النّية، واعرفِ الإرادة؛ فإن المجازاة بالنية.)[2]

الإخلاص:

زادك الذي به تثبُت، وبه تُواجه، وبه تصبر وتصابر، وبه تتجلَّد وتُجالِد " فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا "[3]

إنَّه زادك الذي به تصِلُ إلى الله؛ فإليه يصعدُ الكَلِمُ الطِّيب، والعملُ الصَّالِح، والدُّعاء الخالص، والدَّمعُ النَّقي.

أَمُتَّخِذِ الإخلاص لله جُنَّةً ومن يَعْتَصِم بالله فالله حَسْبُهُ[4]

إنه زادُك ورأسُ مالِك وسبيلُك للفوز في تجارةٍ بضاعتُها روحُكَ التي تَحمِلُها على راحتيك..

يَجُودُ بالنّفْسِ إنْ ضَنّ الجَوادُ بِها والجودُ بالنّفْسِ أَقْصَى غايةِ الجُودِ[5]

---

[1] الزمر 14
[2] رسالة المسترشدين
[3] الفتح 18
[4] ديوان إبن القيسراني
[5] الحماسة البصرية

" إنما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى فَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا أو إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه" [1]

ولقد تأملتُ حالَ المجاهدِين في سبيل الله فوجدتُهم أشد النَّاسِ حاجةً إلى استحضارِ النِّية وإخلاصِها وتجريدِها مما يشوبُها؛ وما ذلك إلاَّ لخطورةِ ما يقومون به، وما يُتوقع أن يتعرضوا له: من كسْرٍ أو بَتْرٍ أوقتلٍ أو أَسْرٍ أوسِجنٍ وإيذاءٍ, ولاشكَّ أنها أمورٌ شاقة جِدُّ شاقة، وكبيرةٌ جِدُّ كبيرة، ولرُبَّما طالَ مقامُها مع من يُصاب بها، فبأيِّ شيء يَسْلُون؟! أم بأي شيء يتصبَّرون؟! أم إلى أي شيءٍ يَسكُنون ويستريحون؛ إن لم تكن نياتُهم صادقة وعملُهم خالصاً فيجدوا لألَمِ البَّلاء وحرارتِه برْد القَبول الذي يأملونَهُ من ربهم عز وجل؟!

والأمرُ ليس بالسَّهل كما يُحاول أن يصوِّرهُ البعض!! بل شاقٌ ومضنٍ يحتاج من العبدِ أن يكون خبيراً بمداخِل الشيطان ونزواتِ النَّفس وأهوائها, فيكون حذراً منتبهاً مدركاً لقولِ سفيان الثوري رحمه الله: (ما عالجت شيئاً أشد عليَّ من نيَّتي فإنها تنقلب عليَّ)[1] ومُتدبِّراً لقول يحيى بن معاذ (الإخلاصُ يَميز العمل من العيوب، كتمييز اللَّبن من الفرث والدم)[2] ومصغياً ليوسِف بن أسباط وهو ينادي (تخليصُ النِّية من فسادها أشدُّ على العاملين من طول الإجتهاد)[3]([2])

وهل العاملون إلا هم وأمثالهُم !؟ فحريٌ بهم أ ن يفتِّشوا عن نيَّاتهِم ويَسْتجْوبُوا أنفُسهُم ويُحقِّقوا في مُرادهم؛ فأي خسارةٍ يمكن أن يُمْنى بها الإنسان أعظمُ من ضياعِ جُهدٍ رُبَّما كلَّفه حياتَه أوحريَّته أوسلامته؟!.

حقيقة البيعة..

عندما تَكثُرُ الدَّعاوى، وترتفعُ الأصواتُ، ويتهافتُ المتهافِتون، وتَشْرَئِبُّ الأعناقُ لكلمةٍ أو عطيةٍ أو مِنحةٍ، تبرزُ حقيقة البيعة!! هذا ما أدركه ابنُ القيّم حين نادى: (لا يَجتمِعُ الإخلاصُ في القلبِ ومحبةُ المدحِ والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمعُ الماءُ والنَّار والضب والحُوت، فإذا حدَّثتك نفسك

---

[1] رواه البخاري برقم1

(1-2-3) جامع العلوم والحكم ص 13 [2]

بطلبِ الإخلاص فأقبل على الطَّمع أولاً فاذبحه بسكينِ اليأس، وأقبِل على المدحِ والثَّناء فازهد فيهِما زهد عشَّاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبحُ الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص)[1]

انظر ما خالط قلبك.

انظُر إلى قلبك جيداً !! انظر إلى أخلاطه.. إلى شوائبه ..

انظر إلى ما يُعكِّرُ الصفاء ويوهِم بالنقاء..إلى ما يشوِّه الحقيقة ويلمِّع الخيال.. إلى ما يجعلُك تسقط وأنت من أراد العُلو!!

نُريدُه إخلاصاً يتجاوز اللِّسان، ليوقفَ صاحِبَهُ عند منصَّة التفكُر في أثر التَّساهل في هذه القضية الضخمة.

فرياءٌ أو حبُّ مدحٍ أو تطلُّعٍ لمنصبٍ يُصاب به الفرد، لاشكَّ أنه يصيب جماعة المجاهدين فيؤخِّرُ النَّصر، ويصعِّب الأمر، ويسلِّط العدو، فإمَّا توبة تُبعِدُ عنَّا شُؤم تلك المعصية، وإمَّا أن نُبعِد من عرفنا منه ذلك من بيننا.

المجاهدُ حرٌ.. رفض الذُّل فتحرك، ورفضَ القَيْد فتحرَّر، ورفضَ الخُنوع فثار.

إنك حرٌ ومن سِمات الحُرِّ الغيرة، فلا ترضى أن يُشاركك في سعيك إلى الله شيء."قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"[2]

ثمَّ احذر فإنَّ الله (إذا أبغض عبداً أعطاه ثلاثاً ومنعه ثلاثاً، أعطاهُ صُحبةَ الصالحين ومنعه القَبولَ منهم، وأعطاهُ الأعمالَ الصالحة ومنعه الإخلاص فيها، وأعطاهُ الحكمَة ومنعه الصِدق فيها)[3]

---

[1] الفوائد 149
[2] الأعراف 162
[3] إحياء علوم الدين 4/ 378

من صفا صُفِيَ له ومن خَلَطَ خُلِطَ عليه..

هذا صفا:

رجلٌ من الأعراب (لم يذكُر الرُّواة اسمه لأنَّه غير معروف، ولكن ما ضَّره ذلك فكفاهُ أن يعرِفه ربُّه يوم تُبلى السَّرائر) جاء إلى النبي فآمن به واتَّبعه ثم قال: أُهاجر معك فأوصى به النبيُّ بعض أصحابه فلما كانت غزوةٌ غَنِم النبيُّ فقسَم وقَسَم له، فأعطى أصحابه ما قَسَم له وكان يرعى ظهرهم فلمَّا دفعوه إليه قال: ما هذا؟ قالوا قَسْمٌ قَسَم لك النبي فأخذه فجاء به إلى النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– فقال: ما هذا؟ قال: (قسمتُه لك)!! قال: ما على هذا أتبعُك ولكن اتَّبعْتُك على أن أُرْمَى إلى ها هنا وأشار إلى حَلْقِهِ بسهمٍ فأموت فأدخل الجنة. فقال:(إن تَصْدُقِ الله يَصْدُقْكَ)، فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدوّ فأُتِيَ به النبيَ يُحْمَلُ قد أصابه سهمٌ حيث أشار فقال: النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ-:(أهُو هو؟) قالوا: نعم قال: (صَدَقَ اللهَ فَصَدَقه) ثم كَفَّنه النبي في جُبَّة له ثم قدَّمه فصلى عليه فكان مما ظهر من صلاته اللَّهم هذا عبُدك خرج مهاجراً في سبيلك فقُتل شهيداً أنا شهيد على ذلك)[1]

وهذا خلط ..

يُروى عن بعضهم قال: غزوتُ في البحر فَعَرضَ بعضُنا مِخلاةً[2] فقلتُ أشتريها فأنتفعُ بها في غزوي، فإذا دخلتُ مدينةَ كذا بِعتُها فربحت فيها، فاشتريتُها فرأيتُ تلك الليلة في النومِ كأن شخصين قد نزلا من السماءِ فقال أحدهما: لصاحبِه: اكتب الغُزاةَ، فأملى عليه: خرج فلانٌ مُتَنَزِّهاً، وفلانٌ مُرائياً، وفلانٌ تاجراً، وفلانٌ في سبيل الله. ثم نظر إليَّ وقال: اكتُب فلانٌ خرج تاجِراً!! فقلتُ الله الله في أمري، ما خرجت أتَّجرُ، وما معي تجارةً أتَّجر فيها!! ما خرجتُ إلا للغزو. فقال: يا شيخ قد أشتريتَ أمس مخلاةً تريدُ أن تربح فيها!! فبكيتُ وقلتُ: لا تكتبوني تاجراً فنظر إلى صاحبه وقال: ما ترى؟ فقال: اكتُب خرجَ فلانٌ غازياً إلاَّ أنَّه اشترى في طريقِه مخلاةً ليربح فيها، حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى.

وقد قيل: الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها.

---

[1] أسد الغابة6/ 451

[2] وعاء من خوص و نحوه

وصايا..

- قال رسولُ الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- يوصي عبد الله بن عمرو – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – يا عَبْدَ اللَّهِ بن عَمْرٍو إن قَاتَلْتَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا بَعَثَكَ الله صَابِرًا مُحْتَسِبًا وَإِنْ قَاتَلْتَ مُرَائِيًا مُكَاثِرًا بَعَثَكَ الله مُرَائِيًا مُكَاثِرًا يا عَبْدَ اللَّهِ بن عَمْرٍو على أَيِّ حَالٍ قَاتَلْتَ أو قُتِلْتَ بَعَثَكَ الله على تلك الْحَالِ"[1]
- وأوصى الفاروقُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – سعد ابن أبي وقاص بمحاسبةِ نفسه وموعظةِ جيشِه. وأمْرِهِم بالنِّية الحسنة والصبر؛ فإن النصر يأتي من الله على قَدْرِ النِّية، والأجر على قدر الحِسبة، وسلوا الله العافية وأكثِروا من قولِ: لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم[2]

  وكتب رضى الله تعالى عنه إلى أبى موسى الأشعرى: من خلُصت نيّتُه كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس [3]
- (إن هذا يومٌ من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي. أخلِصوا جهادَكم، وأريدوا الله بعملِكم. فإن هذا يومٌ له ما بعده)[4]هذا ما أوصى به سيف الله خالد جنده يوم اليرموك.
- وهذا ابن القيمِ يوصيك برائعةٍ من فوائده حين يقول:(العملُ بغير إخلاصٍ ولا اقتداءٍ كالمسافر يملؤ جِرابه رملاً يُثقله ولا يَنفعُه)[5]

ومُشتَّتُ العَزماتِ يُنْفِقُ عُمره   حَيران لا ظَفَرٌ ولا إخْفاقُ[6]

هل يَضُرُّكَ أن لا يعرِفك أحد؟

[1] المستدرك على الصحيحين برقم2437 قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه
[2] البداية والنهاية7/37
[3] إحياء علوم الدين4/ 378
[4] تاريخ الطبري2/335
[5] الفوائد49
[6] ديوان عبد الله الخفاجي

إنها التربيةُ التي يجِبُ أن يتربَّى عليها كُل مجاهِدٍ في سبيل الله حين يَحرُصُ على أن لا يعرفَه أحدٌ، ولا يَحْفَلُ به أحدٌ، ولا يُشيرُ إليه أحدٌ، وهي تربيةٌ عمريةٌ كان الفاروقُ رضي الله عنه حريصٌ على إبرازِها أمام جنودِه وأمام رعيَّتِه في المواقف التي لا بُدَّ من التَّأكيدِ عليها حتَّى يستقِر في النفوسِ حقيقة الإخلاص.

فبعدَ معركة نهاوند جاءهُ الرَّسولُ مُبشِّراً بالفتحِ العظيم فقال لهُ عمر: النُعمانُ بعثكَ؟ قال الرسول: احتسب النّعمان يا أمير المؤمنين، فبكى عُمر واسترجع. ثمَّ قال: ومن ويحك! قال: فلان وفلان حتىَّ عدَّ له ناساً كثيراً، ثم قال: وآخرين يا أمير المؤمنين لا تعرفُهم **فقال عمر وهو يبكي: لا يَضُرُّهم ألاّ يعرفَهُم عمر ولكنّ الله يعرفهم**.[1]

أيها الحُر:

وإذا حَدَثَ أن احتفى بكَ النَّاس وبالغوا في مدحكَ وتزكيتك، فاحذر أن تُصدِّق، فأنت أعلمُ بنفسِك من غيرك، وردِّد أمامَهم ما كان يُردِّدُه الصالحون المخلصون الخائفون: أنا أعلَمُ بِنفسي من غيري، وربِّي أعلمُ بِنفسي مِنّي، اللَّهُمَّ لا تُؤاخِذهم بِما يَقولون، واجعلني أفضل مِمَّا يَظنون، واغفر لي مالا يَعلمون.

أيها الحُر:

إنما يتعثَّر من لم يُخلص، وإنَّ قلبك الذي بين جنبيكَ لا يؤثِّر عليك وحدك، وإنما يؤثر على المسيرةِ كُلها وقد نتعثَّر بسببك، وقد تتعثر أنت بسبب غيرك إن لم يُخلص ما دام معك!!

فلنَجْعَل شِعارنا جميعاً، شِعار الكرخي رحمه الله يوم يقول: يا نفسُ أخلصي تتخلَّصي.

واعلم أن إيثار الله عزوجل أفضلُ من القتل في سبيل الله!! هكذا أدرك يوسف بن أسباط رحمه الله.

ولِم لا فـ"رُبَّ قَتِيلٍ بين الصَّفَّيْنِ الله أَعْلَمُ بِنِيَّتِهِ"[2]

الوصية الثانية

[1] تاريخ الطبري 521/2

[2] رواه أحمد في مسنده برقم 3772

جدد في كل يومٍ توبة

دعوةٌ عامَّة..

"وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون"[1]

كيف يوفَّق للنَّصرِ من لم يوفَّق لتوبة؟! وكيف يعودُ بالغنيمةِ من لم يعُد لربّه؟! وكيف لقلبٍ مريضٍ متعبٍ مُنهكٍ أن ينهضَ بأعباءِ هذه المسيرة وتكاليفِها الباهظة؟!

لذلكَ فإنَّ الجهادَ بحاجةٍ إلى الذين يتوبون من قريب. إلى الذينَ يقفزون على حساباتِ الرِّبح والخسارة، والنَّجاحِ والفشلِ، والانتصار والإخفاق في المقياس الدُّنيوي المحدود، وينطلقون إلى المجال الأوسعِ والأرحبِ في هذه المعادلاتِ وتلك الحِسابات. إلى المِقياسِ الحقيقي، المِقياس الإلهي ويقفون مليَّاً عند قوله تعالى: " ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ"[2]

هنا يَجِبُ أن نَقِف، ومن هُنا يجِبُ أن ننطلِق، ومن هذا العُمقِ ينبغي أن نغوص.

نغوصُ في أعماقِنا ولا شكَّ أنَّنا الأعلمُ بشعابِها ووديانِها، وسهولِها وهِضابِها، وسهلِها ووعرِها، وقريبِها وبعيدِها..

- نغوصُ غوْصَ من يَبحثُ عن الشَّوائبِ فيُزيلُها ليُخرج اللآلئ..
- غوص من يَهُمُّهُ الكَيْف لا الكم . النوع لا الشَّكل . المِخْبر لا المظهر.
- غوص من أدركَ أنَّه فوَّت الكثير، وسوَّف في الكثير، وتساهلَ في الكثير، وتجرَّأ على الكثير.
- غوص من أراد أن يبدأ من جديد، بدايةً تُناسب حجم وخطورة وأهمية المسلكِ الجديد.
- غوص من تسلَّل إلى أذنيهِ حديثُ المشفقِ المحِب:(اشتر نفسك اليوم فإنَّ السوق قائمةً والثَّمنَ موجودٌ والبضائِع رخيصةٌ، وسيأتي على تلك السوقِ والبضائِع يومٌ لا تصِلُ فيها إلى قليلٍ ولا كثيرٍ؛ ذلك يوم التَّغابن يومَ يَعضُّ الظالم على يديه)[3]

---

[1] النور31

[2] النساء 17

[3] الفوائد49

شرطٌ له ما بعده

"لا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وهو يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بها وَلَمَّا يَبْنِ بها، ولا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا ولم يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، ولا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أو خَلِفَاتٍ وهو يَنْتَظِرُ وِلادَهَا"[1] (والغرض هنا من ذلك أن يتفرغ قلبُه للجهاد ويقبل عليه بنشاط)[2]

إنَّه القلب الذي نُريدُه. صافياً وخاصاً من ناحيتين: الأولى: من الأمراض التي تُنكِسُه

والثانية: من الأثقال التي تُقعِده أو تُشغِلهُ أو تُعيقُه.

فالقلبُ يمرُض كما يمرُضُ البدن وشِفاؤه التوبة، ويَفتُرُ كما يفتُر البدن ونشاطُه بالتوبة، ويُشلُّ كما يُشلُّ البدن وعلاجهُ بالتوبة.

والتوبةُ فيضٌ إلهي، وكرمٌ ربَّاني يَمُنُّ به الله تعالى على من أرادَ به الخير، وأراد له الفوز، وكَفل له النَّجاة. إذ ليس العَجبُ فيمن هلكَ كيف هلك!! بل العَجبُ فيمن نجا كيف نجا؟!

إنَّ أبواب التوفيقِ تُغلق، ونوافِذُ الخيرِ تُوصد عن الخلقِ حينَ يُسارعون في الذَّنبِ ويؤخرون التَّوبة، وربَّ شهوةٍ ساعة أورثت حُزناً طويلاً.

(إنَّ الله سبحانه أفرحُ بتوبةِ عبدِهِ من الفاقِدِ الواجد، والعقيمِ الوالد، والظمآنِ الوارد، وقد ضربَ رسولُ الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- لفرحِهِ بتوبةِ العبدِ مثلاً ليس فى المفروحِ بهِ أبلغ منه)[3]

قال رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- "للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حين يَتُوبُ إليه من أَحَدِكُمْ كان على رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاةٍ فَانْفَلَتَتْ منه وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ منها فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا قد أَيِسَ من رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هو كَذَلِكَ إذا هو بها قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قال من شِدَّةِ الْفَرَحِ اللهم أنت عَبْدِي وأنا رَبُّكَ أَخْطَأَ من شِدَّةِ الْفَرَحِ"[4]

---

[1] جزء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه(رواه البخاري برقم 2956)

[2] فتح الباري6/ 122

[3] الزهد لابن المبارك1/ 291

[4] رواه مسلم برقم 2747

التوبةُ الصادقة، والندم الحار، والعزيمة الأكيدة هي التي تجعلك صالحاً للمَهَمَّة الأخطر والأعظم من بين جميع المهمات كلِّها!!

مُدَّ يدك إلى الله واصطلح معه ف "إن الله عز وجل يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ..."[1]

فبنورِ وجهـكَ يا إلهاً راحماً زحزح إليكَ عن السعير مكاني

وامنن عليَّ بتوبة ترضى بها يا ذا العُلى والمـنِّ والإحسان[2]

(إن مالَت نفسُك إلى الشَهوات فاكبحها بِلِجامِ التقوى، وإن أعرضت عن الطاعات فَسُقْها بِسوط المجاهدة، وإن استحلَّت شراب التَّواني واستحسنت ثوب البطالةِ فصِح عليها بصوت العزم)[3].

"لا خيرَ في الدُّنيا إلا في رَجُلَيْنِ رجلٌ أذنَبَ ذَنْبَاً فهو يَتداركُ ذلك بتوبةٍ أو يُسارع في دار الآخرة" هكذا قال علي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -.

نعم.. وإنك ممن يُسارِع في الآخرة - وأي مسارعة - إنها مسارعة من طلَّق الدنيا واشترى الآخرة، وباع الفاني بالباقي، والآجل بالعاجل شعاره: يادنيا غُرِّي غيري.

- فجدد في كل وقتٍ توبة فلا تدري متى تلقى الله.
- وجدد في كل وقتٍ توبة فقد انتُخبت لأمر عظيم.
- وجدد في كل وقتٍ توبةً فقد يتأخر النصرُ بسببك.
- وجدد في كل يومٍ توبة فالنَّظرُ إلى قلبكَ لا إلى صورتِك.
- وجدد في كل وقتٍ توبة فالعيون شاخصةٌ نحوك.

(واعلم أنَّ الذنوبَ تورِثُ الغفلةَ، والغفلةَ تورثُ القسوةَ، والقسوةَ تورثُ البعد من اللهِ، والبُعد من اللهِ يورثُ النَّار! وإنَّما يتفكَّرُ في هذه الاحياءُ، وأمَّا الأمواتُ فقد أماتوا أنفُسهم بحبِّ الدنيا.)[1]

---

[1] رواه مسلم برقم2759
[2] ديوان أبو العتاهية
[3] اللطائف لابن الجوزي

توبةُ مجاهد ..

كان أبو محجن الثقفي لايزال يُجلد في الخمر فلما أكثر عليهم سجنوه وأوثقوه، فلما كانَ يوم القادسية فكأنَّه رأى أنَّ المشركين قد أصابوا في المسلمين، فأرسلَ إلى أمِّ ولدِ سعدٍ أو امرأةِ سعد، إنَّ أبا محجن يقولُ لك: إن خليْتِ سبيلهُ وحملْتِهِ على هذا الفرسِ ودفعتِ إليهِ سلاحاً ليكوننَّ أولَ من يرجِع إليكِ إلاَّ أن يُقتل وأنشأ يقول:

كفى حَزناً أنْ تَلْتَقي الخيلُ بالقَنا وأُتْـركَ مشدوداً عليَّ وِثاقِيا

إذا قُمْتُ عنَّاني الحديدُ وغُلِّقت مصاريعُ من دوني تُصِمُّ المناديا

فحلَّت عنه قيودَه وحُمِلَ على فرسٍ كان في الدَّارِ وأُعطي سلاحاً ثم خرجَ يركُضُ حتىَّ لحِقَ بالقومِ فجعلَ لا يزالُ يَحمِلُ على رجلٍ فيقتُلَهُ ويدُقُّ صُلبَهُ، فنظر إليه سعدٌ فجعلَ يتعجَّبُ ويقولُ: من ذاكَ الفارسُ قال: فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى هزمَ الله العدوَّ ورجعَ أبو محجن وردَّ السِّلاح وجعلَ رجليهِ في القيودِ كما كان.

فجاء سعدٌ فقالت له امرأتُه كيف كان قتالُكم فجعل يُخبرها ويقولُ: لقِينا ولقينا حتى بعثَ الله رجلاً على فرسٍ أبلقٍ لولا أني تركتُ أبا مِحجنٍ في القيودِ لقلت إنها بعضُ شمائلِ أبي محجن فقالت: واللهِ إنَّه لأبو محجن. كان من أمرِهِ كذا وكذا فقصَّت عليه قصتَهُ، فدعا به فحُلَّ من قيودِهِ وقال: لا نَجلِدُكَ على الخمرِ أبداً قال أبو محجن: وأنا والله لا أشربُها أبداً فلم يشربْها بعدَ ذلك[2]

فجددِ في كلِّ يومٍ توبةً يفرحُ بها لكَ ربُّكَ، وتفرَحُ بها غداً بين يديه.

إننا بحاجة ماسة إلى قلوبٍ طاهرةٍ ونفوسٍ زَكيَّةٍ لنخرج جميعاً من الظلمات إلى النور .. وما أحوج المجاهدِين إلى نورٍ من ربهِم يهديهم، فيرون الحق حقاً فيتبعوه والباطل باطلاً فيجتنبوه.

---

[1] رسالة المسترشدين154-155
[2] الكامل في التاريخ 2/324

كما قال ابن تيمية رحمه الله(والمؤمن لا يزال يخرج من الظلمات إلى النور ويزدادُ هدىً فيتجددُ له من العلمِ والإيمانِ ما لم يكن قبل ذلكَ، فيتوبُ مما تركَهُ وفعلهُ، والتوبةُ تَصقل القلب وتُجلّيه مما عرضَ له من رينِ الذنوب"[1])

وصيّةٌ حارَّة

استمع بأذني قلبكَ إلى هذهِ الوصيةِ الحارة من سيدي سيد المجاهدين - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- وهو يتوجهُ بها إلى أفضلِ من حملوا السلاح وجاهدوا في سبيل ربهم يذكِّرهم ويوصيهم بما جعل من نفسه فيه قدوةً، ثم هو يُذكِّر أمته من بعدُ حين يقول:"يا أَيُّهَا الناس تُوبُوا إلى الله فَإِنِّي أَتُوبُ في الْيَوْمِ إليه مِائَةَ مَرَّةٍ"[2]

إن الحركات الجهادية خاصة - وهي تخطوا في طريقها نحو تحقيق الغاية الكبرى والمتمثلة في رفعِ الظلم، وإقامةِ العدل وتمكين الشرع- لمدعوةٌ وبإلحاح إلى وقفةٍ مُتأملةٍ جادةٍ في **(التربية التزكوية)** التي تُثمِرُ سموَّاً قلبياً راقياً في التعامل مع الخالق، وحِسَّاً إيمانياً مُرهفاً تجاه ما يُغضبُه ؛ فتحرصُ بجدٍ على تلقين أفرادِها مثل هذه المعاني، وهذه الوقفات مع النَّفس وما عَسى أن تكونَ قد اقترفتهُ من زَلَلٍ أوخطأ أوتجاوز، قد يُعيقها ويؤخر نتائجها؛ فتُحدِثُ استغفاراً بعد استغفار، وتوبةً بعد توبة، وإنابة بعد إنابة، لتجد أمامها الطريق واسعة تحفها البركةُ والحفظ والتأييد من لدن غفورٍ رحيم، وتحذرُ اشدَّ الحذرِ من أن ينغلقَ بابُ التوفيقِ أمامها فمفاتِحَهُ بيدِها. شُكرٌ بعد نِعمة، وعملٌ بعد عِلم، وتوبةٌ بعد ذنب، واقتِداءٌ بعد اتِباع، وإدبارٌ عن الدنيا بعد إقبال،ثمَّ تَنقُشُ في صدورِ أبنائها أنَّ:**"من لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ الله له من كل ضِيقٍ مَخْرَجًا وَمِنْ كل هَمٍّ فَرَجًا وَرَزَقَهُ من حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ"**[3].

الوصية الثالثة

كن مع الصادقين

---

[1] رسالة في التوبة لابن تيمية 237

[2] رواه مسلم برقم2702

[3] رواه أبوداوود برقم 1518وقال هو أصحُ ما ورد في الباب

"يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ"[1]

الصدقُ مع الله .. مع النفس .. مع الآخرين، هي بمجموعِها تُمَثِّلُ أضلاع مثلثِ النَّصر. النصرُ على النَّفس.. النصر على الشيطان.. النصر على العدو.

تلك الفِطرةُ البسيطة الطاهرة النَّقية التي تجعلُ البناء سهلاً والهدم صعباً لا العكس، وتجعلُ النجاح قريباً والفشل بعيداً لا العكس، وتجعلُ الأهداف حقيقةً والأحلام سراباً لا العكس.

الصدقُ الذي يهدي إلى البِر فيُخرجكَ من بيتِك بالحق لا بالباطل، لله لا لغيرِه، للآخرةِ لا للدُنيا.

الصدق الذي تميَّز به الجيلُ الأول عندما كان الواحِدُ منهم يتفجَّر صدقاً مع ربِّه ومع نفسهِ ومع غيرِهِ؛ فاستحقُّوا النصر الذي تأخر عن غيرهم لأن الله لا يُغيُّر ما بقومٍ حتى يُغيروا ما بأنفسهم.

هذا ما نحتاجُه اليوم أيها الأخ المجاهد- نعم هذا ما نحتاجُه- صدقاً يَرضى به الله عنَّا .. وصدقاً تطمئنُّ به نفوسُنا.. وصدقاً يحترمُنا لأجلهِ عدُوُّنا.

ما أحسن الصّدق في الدنيا لقائِله وأقبحَ الكِذْبَ عند اللهِ والنَّاسِ[2]

لا ينفعُكَ اليوم إلاَّ الصدق

حين تحتدِمُ المواقف، وتحتدُّ الأمور، وتتشابكُ الخطوب؛ يبرُزُ الصدق ليُنجيك، ويبرزُ ليحميك، ويبرزُ ليُعينُك "هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ"[3]

ودعني أذهبُ بك أيها الفارسُ! إلى أبعدِ من ذلك، إلى ما قالهُ أحدُ الصالحين:(عليك بالصِدقِ وإن قتلك)!! نعم فنحنُ نريدُ تلكَ النَّفسية الحسَّاسة المرهفة التي ترى الصدقَ منجاة والكذب مَهْواة؛ فتُجاوزُ المعنى العام للصدق في البيع والشراء، والأخذ والعطاء، والسؤالِ والجواب وتتعداه ليكون سلوكاً ومبدأً وعُرفاً نتعاملُ به في هذا الطريق الصَّعب الممتلئ بالمواقف التي تحتاجُ منَّا إلى تحقيق هذا الخُلق وتطبيقه.

فمواقِفنا لا بُد أن تُبنى على صِدق الأحكام، وأحكامُنا لا بُد أن تُبنى على صدقِ النوايا، ونوايانا لا بُد أن تُبنى على صدق الأعمال، وأعمالُنا (قتالُنا- ولاؤنا..) لا بُد أن تُبنى على صدق الحُكم الذي

[1] التوبة 119
[2] نهاية الأرب في فنون الأدب
[3] المائدة119

يَنتُج بعد دراسةٍ وبحثٍ وتقليب لوُجُوهِ المسائِلِ، مُستصحبين دائماً العقل، ومُستحضرين دائماً قاعدة المصلحة والمفسدة، غير متجاهلين تجاربَ الماضي ولا مُتغافلين عن الحاضرِ ولا مُتعامينَ عن استشراف المستقبل.

إنَّه الصِدق الذي لا مُداهنة معه، فلا مُداهنة مع النفس ولا مُداهنة مع الغير، هذا ما أكَّده سهل بن عبد الله رحمه الله يوم يقول: (لا يشم طريق الصدق عبدٌ داهن نفسهُ أو داهن غيره)[1]

إنَّ طريقك أيها الفارسُ الحرُ! طريقٌ إمَّا أن ترقى فيه إلى أعلى السَّنام أو تهوي فيه إلى أسفل مقام!! فلا بالطَّمع ترقى، ولا بالهوى ترقى، ولا بالحرص ترقى؛ **وإنما بالصدقِ الذي يَحْكُم النوايا ويَحْكُم على النوايا، ويحكُم العواطف ويتحكَّم بالعواطف، ويحكم الأهواء ويُحاكمُ الأهواء.**

نعم: إنه يجِبُ علينا وفي زحمةِ الشِّعارات والهُتافاتِ والحماسات أن نستلَّ أنفُسنا، ونختلي بقلوبِنا لننظُرَ كم هو نصيبُ الصِّدق من ذلك؟! فإمَّا أن يكون كلَّه صدقٌ وإلاَّ فلا، فأولُ القضية صدق وأوسطها صدق ومُنتهاها صدق، وهكذا مرةً أخرى تلقَّى الجيلُ الأول هذه القضيةُ المهمة، وهكذا عاشوها، وهكذا تحركوا بها.

صدق مع الله

كثيرةٌ هي تلك المواقف التي يُطربُك صدق أصحابها مع ربهم، ويزيدُك طرباً حين تعلمُ أنها لم تكُن في مواطنَ يَسَعُ الجميع فيها الصدق فيختلط الحابل بالنابل، ويستوي الهازل مع المجِدِّ، والمكثر مع المقِل؛ بل هي وعودٌ مع الله، الموت أبرزُ عناوينها، ومواقِف مع الأحداث تُترجم حقيقة الصدق الذي قُلنا أنه يتجاوز معناه العام إلى المعنى الأدق والأكبر والأخطر.

فخذ هذا مثالاً ليدفعك بعد ذلك حُبك لمثل هذه القيم إلى التفتيشِ عن روائع القصص في هذا المجال:

- إنه أنسُ بن النّضر – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – يوم شقَّ عليه أن غابَ عن غزوة بدر فقال: أولَّ مشهد شهِدَه رسول الله غِبتُ عنه!! لئن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ليَرَيَنَّ الله ما أصنع

[1] الزهد الكبير1/ 343

وهاب أن يقولَ غيرها. فشهِدَ مع رسول الله يوم أحد، وحدث ماحدث وانكسر المسلمون بعد مخالفةِ الرُماة لأوامرِ القائدِ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- وانكشفوا فقال:اللَّهم إني أعتذُر إليك مما صنعَ هؤلاءِ يعني أصحابَهُ، وأبرؤ إليك مما صنع هؤلاءِ يعني المشركين، فاستقبله سعد بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو أين؟! الجنَّة وربِّ النضر إني لأجِدُ ريحها دون أُحد!! فقاتل قتال الصادقين حتى قال سعد وهو يصفُ الصدق والثبات: ما استطعتُ يا رسول ما صنع!! وقُتل(الصادقُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –) فوجِدَ في جسده بضعٌ وثمانون من ضربةٍ وطعنة ورمية حتى أن أخته الرُبيع بنت النضر قالت: ما عرفتُ أخي إلا ببنانِه.!! وفيه وفي أصحابِه نزل قوله تعالى:"من الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُوا اللهَ عليه"[1]

وِنيّاتُ أهل الصّدقِ بيضٌ نقيَّةٌ ... وألسُنُّ أهْلِ الصِدقِ لا تتلجّلجُ[2]

صدقٌ مع النـَّفس

وموقف ثانٍ ولكن هذه المرة مع النَّفس، النفسُ الأمارة بالسوء. النفس المتطلعةُ إلى التَّخفف من المسئوليات. النفس الراغبة في السلامة المتلكّأة عن العزيمة.. المتثاقلة إلى الأرض ولكن:

إذا كانتِ النُفوسُ كِباراً ... تعِبتْ عن مُرادِها الأجسادُ[3]

إنه موقفُ الصدقِ مع النفسِ لرجلٍ تنكَّرت له الأرضُ حتى أصبحت لا كالأرضِ!! وتغيَّرت عليهِ وجوه النَّاسِ حتى أصبحت لا كالوجوهِ!! وضاقت عليه نفسُه حتى أصبح مِنها كلابِس ثوبٍ ضيّقٍ يكادُ يُمزّق جلده من تحته!! وتعرَّض لأقسى درجات التأديبِ والتربية وعاش مقاطعةً عامةً حتى من الزوجة والأهل والأحباب.!! ذلك كعبُ بن مالكٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – وذاك ما وقع عليه بعد تخلُفهِ عن غزوةِ تبوك.

[1] أصل القصة موجودة في كتب الصحاح والسير
[2] أبو العتاهية
[3] نهاية الأرب في فنون الأدب

وليست المشكلةُ في الوقوع في الخطأ فكلُنا ذو خطأ، وليست المشكلةُ في الوقوع في الذنب فما منَّا معصومٌ؛ ولكن المشكلة كُل المشكلة فيما بعد الخطأ وما بعد الذنب، هل نصدُق مع أنفسنا فنتوب؟! ونصدق فنعترف؟! ونصدقُ فنعود ونُصحح؟!

لقد كان- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – من النوعِ الذي نُريد ونبحث، أرادةٌ إيمانية، وشجاعةٌ أخلاقية، وصدقٌ مع النَّفس دقيق. فبينما هو على تلك الحال إذ جاءته ر سالةٌ إن شئت سمّها ملكيةً أو أميريَّة أو سُلطانية أو رئاسيَّة!!، يقول فيها صاحبُ الفخامة أو الجلالةِ أو السمو "**بلغنا أن صاحبكَ قد جفاك، فالْحَقْ بنا نُواسِك**" فيالها من دعوةٍ جاءت على موعدٍ، ويالها من دعوةٍ جاءت على ظمأ، ويالها من دعوةٍ جاءت على فاقة وحاجةٍ لمن يُواسي ومن يُناصر ومن يحمي ويؤازر.

ولكنك أيُها الفارسُ! على موعدٍ مع الصدق يتجلَّى لك من هذا الصحابي الفَذ حيث خالف التَّوقعات، وقلب الموازين، وخيَّب الترجيحات، فهو لم يذهب بالرسالة إلى إخوانه يُعيَّرهم ولسانُ حالهِ يقول: لتنفعكم مقاطعتكم!! أو طار بها فرحاً مُيمِماً وجهه نحو جهتِها وأهلها!! وإنَّما طار بها إلى التَّنور وقذفها فيه ليُعلن بينه وبين نفسِه أولاً، ثم بينه وبين الآخرين أنَّ نار الصِّدقِ مع النفس وما قد يترتَّب عليها لأحبُ إليه وأبردُ عليه من التحلُّلِ والنكوصِ عند الفتن!!

إنه الصدق في أصعبِ المواقف وأقسى الفترات، ثم يأتي نتاجُ الصدق برداً وسلاماً على صاحبِه من فوق سبع سماوات

"وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"[1]

وكذلك يأتيك أخي ذلك الناتج من حيث لا تحتسب، ثم يكون برداً وسلاماً عليك؛ فمن آثر الصدق في كل موطنٍ غنَم، ومن أخذ به حيث يظُن أنه يُهلكُه أنجاه.

صدق على حساب النّفس

[1] التوبة118

يتوجهُ به المجاهِدُ إلى قيادته وإخوانه في الميدان بكلِّ أدبٍ واحترام، صدقٌ لا مداهنة. نصيحةٌ لا فضيحة. إشفاقٌ لا تشفِّ. نصيحةٌ صادقةٌ لا يُخرسُها الخوف، أو يُسكتُها مبدأُ (لا يعنيني) ممتثلاً طريقة ابن الجوزي رحمه الله في صدق النصيحة حينما كان يعِظُ الخليفة فيقول: (يا أمير المؤمنين، إن تكلمتُ خفتُ منك، وإن سكتُّ خِفت عليك، وأنا أُقدِّمُ خوفي عليكَ على خوفي منك، فقولُ النَّاصح: اتقِ الله خيرٌ لك من قول القائل: أنتم أهلُ بيتٍ مغفورٌ لكم)[1]

ولا يتحققُ الصدق الكاملُ في هذا الجانبِ إلا أن يكون بعيداً عن الضوضاءِ والصَّخبِ والصياحِ على رؤوسِ الأشهاد ليُعلمَ أنَّك ناصح، لا تأخذُك في الله لومة لائم!! فالصادقُ ينصح، والكاذبُ يفضح، والصدق لا يريدُ كلَّ هذه الضجة الإعلامية، بل كما قيل لأسامة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – وكما ردَّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – حيث قِيلَ له: "لو أَتَيْتَ فُلانًا فَكَلَّمْتَهُ قال: إِنَّكُمْ لَتُرَوْنَ أَنِّي لا أُكَلِّمُهُ؟ إلاَّ أُسْمِعُكُمْ؟! إني أُكَلِّمُهُ في السِّرِّ دُونَ أَنْ أَفْتَحَ بَابًا لا أَكُونُ أَوَّلَ من فَتَحَهُ، ولا أَقُولُ لِرَجُلٍ أَنْ كان عَلَيَّ أَمِيرًا إنه خَيْرُ الناس، بَعْدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ من رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– قالوا: وما سَمِعْتَهُ يقول؟ قال: سَمِعْتُهُ يقول يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يوم الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى في النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ في النَّارِ فَيَدُورُ كما يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عليه فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلانُ ما شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عن الْمُنْكَرِ؟ قال: كنت آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ ولا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عن الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ"[2]

صدقُ العظماء

ودونك الآن موقفٌ من الصدق يفوقُ وصفه كل الكلمات والتعبيرات، إنَّه الصدق الذي لا يمكن أن يصدُر إلا من العظماء. عظماء النُّفوس والأخلاق والمبادئ، حين يتجلَّى ذلك الصدقِ مع الآخرين ممن هم على غيرِ دينِكَ ومِلَّتِكَ، بَل ممن هم تحت يدك ومصيرُهم مرهونٌ بتصُّرفِك، إذ يُمكن أن لا تُعير لهم بالاً ولا لحقوقه اهتماماً، تماماً كما يفعل أصحاب الزَّيف والتَّزوير ممن يَرفعون شعاراتٍ هُم مِن أبعد الناس عنها، ولكنه صدقُ المبادئ والمواقف والأخلاق: ففى حمص ردَّ الأمراء بأمرِ أبي عبيدة ما كانوا أخذوه من الجزية من أَهلِها، حينَ جلوا عنها ليتجمعوا لقتال الروم، وقالوا لأهل البلاد: إنمارَدَدنا عليكم أموالكم لأنَّه قد بلغنا ما جُمع لنا من

[1] سير أعلام النبلاء21/ 372
[2] رواه البخاري برقم 3094

الجموع، وإنكم قد اشترطتم أن نَمنعكم، وإنَّا لا نقدر على ذلك الآن، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشَّرطِ وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم، (فكان جوابُ أهل هذه البلاد جوابَ من استشعر العدل وذاقه، والأمن وعاشه) فقالوا:ردَّكم الله علينا ونصركم عليهم، فَلو كانوا هم لم يردُّوا علينا شيئاً، وأخذوا كل شيء. لَوِلايَتِكم وعدلِكُم أحبُّ إلينا مما كنَّا فيهِ من الظُلم والغشم، (يعنون بذلك أهلهم وقومهم.)[1]

"فَلَوْ صَدَقُواْ الله لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ"[2]

إنه الخير أيها الفارس! الخير الذي يَحْويهِ الصِّدق، ويجمعُه الصدق، ويُنتجه الصدق. إنه صدقُ الرجال، كما أنهم رجال الصدق الذين على أكتافِهم يقومُ الجهاد، وبِجهودهم تُحمل الأعباء، وبسلامة قلوبهم يكون النصر، وبصدقهم تكونُ البركة فلا يذهب الجُهد سُدى، ولا تضيع الأوقات عبثاً، ولا تتراجَعُ النَّوايا في منتصف الطريق لتكون المصالح الشخصيةُ فوق الجماعية، والدنيوية فوق الأخروية، ولا تتبدلُ الأولويات أو تتأخر الضروريات أو يكونُ التَّشاغل بالتفاهات أولى من المهمات.

أيُها الفارس! إنَّ طريقنا طريقُ صدق؛ فلا يصلحُ فيه إلاَّ الصَّادقون، ولا يُقدَّم فيه إلا الصادقون، ولا ينتصِرُ فيه إلاَّ الصادقون، ولا ينال فيه الشهادة إلا الصادقون.

و (من لم يؤدِّ الفرض الدائم، لم يقبل منه الفرض المؤقت، قيل: وما الفرضُ الدائم؟ قال: الصدق)[3]

الوصية الرابعة

استشر قبل أن تُقدم

" وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ "[4]

لا تَعْجَل ففي العَجَلةِ النَّدامة. قال علي – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – (من شاورَ الناس شاركها عُقولها، ومن أُعجب برأيه ضَل، ومن استغنى بعقله زل).

[1] فتوح البادان1/ 143
[2] محمد 21
[3] مدارج السالكين2/ 279
[4] الشورى 38

وقال يوصي ابنه الحسن – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –:(وأَمسِك عن السَّير إذا خِفْتَ ضلالةً، فإنَّ الكَفَّ عند حِيرة الضَّلالة خيرٌ من ركوب الأهوال)[1]

ولاتحسب الشورى عليك غضاضةً   فإن الخوافي قوةً للقوادِمِ[2]

إنَّ طريقك هذا الذي تسيرُ فيه لا تصلُح فيه الأهواء، والتَّعصب للآراء، والإصرار على الأخطاء.

هل تستطيع أن تتحمل قطرة دمٍ تكتشف بعدها أنَّها سالت لاستعجال في الحكم أو تسرُعٍ في التقدير؟

أم هل تستطيع أن تأخذ شيئاً تحسبه مغنماً ثم يكون عليك مغرماً؟

أم هل تستطيع أن تقطف ثمرةً تظنُها حلوةً وإذا بها مرةٌ كالعلقم؟

لا تظنُ أن خطأً من الفرد يقعُ أثناء الطريق يكون أثره على صاحبه فقط، بل مع التجربة والاستقراء وجدنا أن المسيرة تتحمل تلك الأخطاء وينالُها من التَّشويهِ والتهويل ما ليس فيها، ولو أننا اتخذنا المشورةَ مسلكاً، وطريقةً، وأسلوبَ عمل؛ لجنَّبنا أنفسنا ومسيرتنا كثيراً من الأثقال التي أبطأت حركتها وتقدُّمها.

ولقد فطن لأهمية ما نقول فحول الرجال، أولو العقول الراجحة، والأفهام الواسعة، ممن أوتوا العلم والحكمة معه!!

فهذا المحدَّثُ الفاروقُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – يفرزُ لك الرجال ويُبيِّنهُم– ولا شك أن أفضلهم أوسطهم– فيقول: (الرجالُ ثلاثة رجلٌ ترِدُ عليه الأمورُ فَيَصدُرُها برأيه، ورجلٌ يُشاورُ فيما أشكلَ عليهِ ويَنْزِلُ حيثُ يأمُرُه أهلُ الرَّأيِ، ورجلٌ حائِرٌ بائرٌ لا يَأْتَمِرُ رُشداً، ولا يُطيعُ مُرشِدا).

وقال علي بن أبي طالب – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –:(نِعْمَ الموازَرَةُ المشاورة، وبِئس الاستعدادُ الاستبداد)

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (إنَّ المشاورةَ والمناظرةَ بابا رحمةٍ، ومُفتاحا بركةٍ لا يَضِلُّ معهما رأيٌ ولا يُفقدُ معهما حزم)[3]

---

[1] كنز العمال16/ 71

[2] بشار بن برد

[3] المدخل إلى فقه الإمام أحمد4/ 41

أما خالد بن معدانٍ فيقول:(الحزمُ أنْ تُشاوِرَ ذا لُبٍ، ثمَّ تُطيعَه.)[1]

ثم إنك إن استشرت فلا تبحث عمَّن يوافق هواه هواك، فأصلُ المشورةِ البحث عن الحقِّ والصوابِ لا البحثُ عمَّن نظُنُّ أنَّه يوافقُنا لما نذهبُ إليه!

قال صاحب المدخل:(أنْ لا يكونَ لهُ في الأمر المستشارِ فيه غرضٌ يُتابعه، ولا هوىً يُساعده، فإن الأغراض جاذبة، والهوى صادٌ والرأي إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد.)[2]

وقال الفضل بن العباس:

وقد تُحكمُ الأيامُ من كان جاهلاً ... ويُردي الهوى ذا الرأيِ وهو لبيب[3]

وهذا لا شك يحتاجُ إلى تربيةٍ وتدريبٍ على دفع الهوى وصدِّه فيما تُؤمنُ عاقبتهُ للوصول إلى صدِّ ما تُهلكُ عاقبته.قال ابن الجوزي (وينبغي للعاقل أن يتمرَّنَ على دفعِ الهوى المأمونِ العواقبِ، ليستمرَّ بذلك على تركِ ما تؤذي غايتُه)[4]

سئل ابن المقفع عن الهوى فقال: هوانٌ سرقت نونُه !! فنظمه شاعر فقال:

نونُ الهوانِ من الهوى مسروقةٌ ... فإذا هويتَ فقد لقِيْتَ هوانا

(إذا أردت -أي هممت- أن تفعل أمراً فتدبر عاقبتَه، بأن تتفكر وتتأمل ما يُصلحه ويُفسده، وتُدقق النَّظر في عواقبه مع الاستخارة ومشاورة ذوي العقول، فالهجوم على الأمور من غير نظر في العواقب موقع في المعاطب فلذا قيل:

ومن تركَ العواقِبَ مُهملاتٍ ... فأيسرُ سعيَهُ أبداً تَبارُ[5]

---

[1] كنز العمال 1/ 515
[2] المدخل إلى فقه الإمام أحمد4/43
[3] الفضل بن العباس بن عتبه
[4] ذم الهوى1/ 13
[5] فيض القدير1/270

إنَّ العمل الجهادي ليس عملاً شخصياً – بحيثُ نجعله في محل التجربةِ فإن نجح وإلاَّ أعدنا الكرَّة فيه مرةً أخرى، ولا عملاً استثنائياً قد تترتَّبُ عليهِ نتائجُ مهمةٌ أو لا تترتَّب بحيث نجعله تحت استبدادِ شخصٍ أو أشخاص يتحركون بهِ ومن خلالهِ دون استشارةٍ أو دراسةٍ أو استعدادٍ؛ بل بحماسةٍ واندفاعٍ واستعجالٍ، فيحلُّ الإفسادُ مكان الإصلاح، والخطأُ محل الصواب، والهزيمة بدل النَّصر– وإنما الجهاد (مشروع أمةٍ) تتحركُ فيه ومن خلالهِ وفق أهدافٍ واضحةٍ وإمكانيات مُستطاعة وظروفٍ متاحة.

لا تحرموا أنفسكم

من الحِرمان أن يَحرِمِ المرؤ نفسهُ مشورة إخوانه، والأشدُّ حرماناً من يحرمَ نفسَهُ ذلك لاعتقادِهِ أنَّه على الصَّواب، وأنَّ من حولهُ ليسوا أهلاً للاستشارةِ وطلب النُّصح، وهذا نوعٌ من الغرور والاستبدادِ لا يصلُحُ للأعمال العِظام والقرارات المصيريةِ التي يكونُ الناتجُ السلبيُّ فيها مؤثراً تأثيراً مباشِراً على مسيرةِ العمل الإسلامي كُله لا الجهاديِّ منه فقط!!

والجماعات الجِهادية كغيرها من مكونات الطَّيف الحركي في العمل الإسلامي مدعوةٌ للتعاطي الحقيقي مع سُنَّة الاستشارة، لأنها بحاجةٍ إلى أخواتها من الحركات الدعويةِ والفكريةِ والسياسيةِ والاقتصاديةِ في العمل الإسلامي ولا تستغني عنهم بحالٍ من الأحوال، كما أنَّهنَّ لا يستغنين عنها – فالكلُّ يكمِّلُ بعضه البعض– فاستشارتهم والتَّباحُث معهم وإشراكهم في اتخاذ القرار – والذي لا شكَّ أن نتائجه تؤثر على الجميع – أمرٌ مهمٌ ولا مفرَّ منه، فالاشتراك في تحمُل المسئولية سبيلٌ ناجحٌ وناجعٌ في استثمار النَّجاح وتوظيفهِ، وكذلك في تحمُّلِ الخطأِ وتصليحه ومن ثَمَّ تجاوزه.

وكم حملَ لنا التَّاريخُ من نتائج مُحزنة وانتكاساتٍ مُحرجة كان سببها الاستبدادُ في الرأي وتهميشِ الآخر، وإهمال العقول بدل إعمالِها، وتعطيلِها بدل توظيفها!!.

وهذه الأمةُ لا تجتمعُ على ضلالة كما أخبرَ بذلك النبيُ – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– فقال " إِنَّ اللهَ لا يَجْمَعُ أُمَّتِي أو قال أُمَّةَ مُحَمَّدٍ على ضَلالَةٍ وَيَدُ اللهِ مع الْجَمَاعَةِ وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إلى النَّارِ "[1] ولعلَّ مفهوم المخالفةِ

[1] رواه ابن ماجه برقم2167 وقال الألباني رحمه الله (صحيح) دون "ومن شذ"

يبرزُ هنا حيث يُمكننا القول أنَّ تفرَق الأمةِ يُمكنُ أن يؤدِّي إلى الضلالةِ في مجموعِ أفرادها في المنهجِ والفكرةِ والرأي والقرار!!.

"إنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ وَعَلَيْكُمْ بِالْجَماعَةِ وَالْعَامَّةِ والْمَسْجِدِ"[1]

*أشيروا عليَّ أيها الناس

لسنا أفضلُ ممن لا ينطق عن الهوى.. ممن يأتيه الوحي من السماء.. من المعصوم – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- حيث اتخذ المشورة له مسلكاً وطريقاً وهو الغني عنها بما أغناه الله من العلم والفهم والنظرة الثاقبة والعصمة. ولكنه المنهج السليم الذي أراد النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- أن يعلمه أمته أفراداً كانوا أم جماعات.

وهذا ما استنبطه الماوردي رحمه الله في كتابه أدب الدين والدنيا حيث يقول:(ومن الحزمِ لكل ذي لُبٍ أن لا يُبرِمَ أمراً ولا يُمضي عزماً إلا بمشورةِ ذي الرأيِّ النَّاصحِ، ومطالعةِ ذي العقلِ الراجح؛ فإن الله تعالى أمر بالمشورةِ نبيَّه مع ما تكفَّل به من إرشادِه وعونِه وتأييدِه فقال تعالى:"وشاورهم في الأمر")[2]

إن حياته – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- مُلأت بالاستشارة في دقيق الأمور وجليلها وعامّها وخاصِّها

- "أَشِيرُوا أَيُّهَا الناس عَلَيَّ أَتَرَوْنَ أَنْ أَمِيلَ إلى عِيَالِهِمْ وَذَرَارِيِّ؟ "[3] قالها عليه الصلاة عندما أُخبر أن الأحابيش جمعوا له وهم مقاتلوه وصادُّوه عن البيت.
- "أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي الْكَعْبَةِ أَنْقُضُهَا ثُمَّ ابني بِنَاءَهَا أو أُصْلِحُ ما وَهي منها؟"[4]
- "أشيروا علي في المنْزِل"[5] قالها عليه الصلاة والسلام عندما أراد النزول عند أدنى ماءٍ من بدر

---

[1] رواه أحمد برقم22082 وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط :حسن لغيره ، وهذا سند رجاله ثقات إلا أنه منقطع.
[2] أدب الدين والدنيا
[3] رواه البخاري برقم 3944
[4] صحيح مسلم برقم 1333
[5] زاد المعاد3/ 175

- "أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا أَهْلِي وَايْمُ اللهِ ما عَلِمْتُ على أَهْلِي من سُوءٍ"[1]. قالها النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- عندما قُذفت أُمنا الطاهرة المطهرة.

وسار على ذلك أصحابه من بعد ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلاَّ بما صلح به أولها."وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ"[2]

الاستشارة وإلاَّ البراءة

"اللهم إني أبرءُ إليك مما صنع خالد بن الوليد"..[3]

قالها النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- حين بعثه إلى ماء من مياه جذيمة من بني عامر فقتل منهم ناساً لم يكن قتلُه لهم صوابا فوَدَاهم رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- .

وفي تبرؤ النبي من خالدٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – حكمةٌ ذكرها الخطابي حيث قال: (الحكمة في تبرُّئِه من فعل خالد –مع كونه لم يعاقبه على ذلك لكونه مجتهداً- أن يُعرف أنه لم يأذن له في ذلك، خشية أن يعتقد أحدٌ أنه كان بإذنه ولِيَنْزَجِر غير خالد بعد ذلك عن مثل فعله)[4]

فهل عُرف القصد وبان المُراد؟!

الوصية الخامسة

عليك بالاستخارة بعد الاستشارة

[1] رواه البخاري برقم 4479

[2] الشورى38

[3] رواه البخاري برقم 6766

[4] فتح الباري13/183

إن كان استنفارُ عقولِ الرِّجالِ – استشارةً وسؤالاً وتقليباً لوجوهِ المسائل والأحداث – أصلاً لا بد للمجاهد من الاهتمام به، وعدم إهماله؛ فإن استخارة ربِّ الرجال والعقول رُكناً لا يسعُ المجاهد تركهُ، فالاستخارةُ في الأعمالِ الجهاديةِ (أرى) أنها ركنٌ كما هو حال تكبيرةُ الإحرام للصلاةِ مع الفارقِ فيما يترتبُ على تركها – أي الاستخارة – من حكمٍ شرعي.

استخِر من في السماء يُخَر لك في الأرض. هكذا كان السلفُ يقولون ويوصون.

لقد كان النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- يعلِّم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، وهذا فيه ما فيه من حرصِ من هو أحرصُ علينا وأرحمُ وأشفقُ من أنفسِنا ومن أمهاتِنا وآبائنا، كيف لا وهو العالِمُ بمصالح الأمور، المرشد لما فيه الخير والفلاح والنجاح صلوات الله وسلامه عليه.

عن جَابِرِ بن عبد الله – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قال كان رسول الله يُعَلِّمُنَا الاسْتِخَارَةَ في الأُمُورِ كما يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ من الْقُرْآنِ يقول: إذا هَمَّ أحدكم بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ من غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلْ "اللَّهم إني أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ من فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ ولا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ ولا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ اللهم إن كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هذا الأَمْرَ خَيْرٌ لي في دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أو قال عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لي وَيَسِّرْهُ لي ثُمَّ بَارِكْ لي فيه وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هذا الأَمْرَ شَرٌّ لي في دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أو قال في عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عنه وَاقْدُرْ لي الْخَيْرَ حَيْثُ كان ثُمَّ أَرْضِنِي به" قال وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ[1]

لم يكن هذا الحرص النبويُ العميق والملاحقةُ الدقيقة لأصحابه في حملهم على التمسكِ بهذهِ السُنة المباركةِ؛ إلاَّ لعلمه عليه الصلاةُ ما يترتب على تركها وإهمالها من عنتٍ وتعبٍ، حينَ يوكِلُ الإنسانُ نفسهُ لنفسِه، أو يوكِلهُ الله لنفسِه.

(من ترك الاستخارة والاستشارة يخاف عليه من التَّعب فيما أخذ بسببيله لدخوله في الأشياء بنفسه دون الامتثال للسنة المطهرة وما أحكمته في ذلك، إذ إنها لا تُستعمل في شيء إلا عمَّته البركات، ولا تترك من

[1] رواه البخاري برقم 1109

شيء إلا حصل فيه ضد ذلك)[1]."من يُرِدْ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ"[2] ومن الفقه المداومة على ما داوم عليه النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- وداوم عليه أصحابه من بعده.

استخارة ابن سُبكتكين

لقد أدرك المجاهدون من قبلُ هذه الحقيقة؛ فكانوا يستعينون بالله ويستخيرونه في المهمات الصعاب، فيلفونها سهلةً قد أعانهم الله عليها.. بل يجدون من نتائج فضل الله أضعاف ما كانوا يتوقعونه.

(كتب محمود بن سُبكتكين[3] إلى الخليفة كتاباً فيه ما فتحَهُ من بلادِ الهندِ وكسْرِهِ الصنم المشهورَ بسومنات، وإنَّ أصناف الهند افتتنوا بهذا الصنم، وكانوا يأتونه من كلِّ فجٍ عميق، فيتقربون إليه بالأموال، ورَتُبَ له ألف رجلٍ للخدمة، وثلاثمائة يَحلِقون رؤوسَ حَجيجه، وثلاثمائة يُغنّون على باب الصنم.

وجاء في كتابه: لقدكان العبدُ يتمنى قلعَ هذا الصنم ويتعرَّفُ الأحوال، فتوصفُ له المفاوزَ إليه، وقلةَ الماء، وكثرةَ الرمال (**فاستخار العبدُ الله**) في الانتداب لهذا الواجب طلباً للأجر، ونهض في شعبان سنة ست عشرة في ثلاثين ألف فارسٍ سوى المطَّوِعة، ففرَّق في المطوعة خمسين ألف دينار معونةً وقضى الله بالوصول إلى بلد الصنم، وأعان حتى ملك البلد وقُلِع الوثن وأوقدت عليه النار حتى تقطع وقُتل خمسون ألفاً من أهل البلد.[4])

إن جيل الجهاد والبناء.. والتضحية والفِداء..والهمة والعطاء، لفي أمسّ الحاجة لاستخارةِ ربهم في جميع شؤونهم وتحرُّكاتهم؛ حتى لا يضيع جهدهم وبذلهم بسبب لحظةِ عجزٍ أو غفلةٍ أو تقصير!! وعليهم أن يستثمروا جيداً وعْدَ الله لهم حين رفع قدرهم وتكفَّل بتوفيقهم، والتكليل بالنجاحِ سعيهم حين قال جلَّ وتعالى:"وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ"[5]

---

[1] المدخل إلى فقه الإمام احمد 43/4

[2] رواه البخاري برقم 71

الملك يمين الدولة فاتح الهند أبو القاسم صاحب خراسان والهند، فرض على نفسه كل سنة غزو الهند، فافتتح بلاد شاسعة، ولدسنة361- 421ومات بغزنة سنة انظر

[3](سير أعلام النبلاء17/483-495)

تاريخ الإسلام28/ [4]261

[5] العنكبوت69

واعلم رحمك الله أنَّه "ما خاب من استخار ولا ندم من استشار"

الوصية السادسة
اجعل الأمانة شعارَكَ

"لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ"[1]

هكذا قطعَ النبيُّ – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- في الأمر، وهكذا استأصل الشكَّ وبتر الريب؛ فالإيمان قرينُ الأمانة، والدين قرين العهد، ومن تصوَّر إيماناً بلا أمانة فقد وهِم، ومن اشترى ديناً بلا عهد فقد غُبِن.

إنَّ عهودَ الرجال ومواثيقهم لا تُكتبُ على أوراق، ولا تُمهر بأختام؛ وإنَّما هي صفقةُ يدٍ يأخذُها الرجل على نفسه، فلا والله لذهابُ روحه بعد ذلك أهون عليه من نكثِ عهده وميثاقه ووعده الذي قطعه على نفسه.

الأمانة مطلبٌ مُلِح

إنَّ هذا الطريق الشَّاق يحتاجُ إلى شخصيَّةٍ متميِّزة بجوانبها الإيمانية والسلوكية والوجدانية والتعاملية، فهو طريقُ اصطفاءٍ

فليست الأمانةُ مالاً يودعُ فيُحفظُ أو يُضيَّع!! أو سرَّاً يودعُ فيُذاعُ أو يُكتم!! بل الأمانةُ معنىً أكبر من ذلك كلِّه، وأعظم من ذلك كله، إذ هي الإيمان كله!.

من خلالِه وحده يختارُ الله الشُهداء، ومن خلاله وحده يُصفَّى الرجال، فأما الزبدُ فيذهبُ جُفاءً وأما ما ينفع المرحلة ويَصْلُحُ للمسيرة فيمكثُ ويثبت، وعلى يديه يكون النَّصر بإذن الله.

ومن أبرزِ ملامح تلك الشخصيَّة التي يحتاجُها طريقنا هي (الأمانة) التي أخبر النبيُّ – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- أنها: " نَزَلَتْ فِي جَذْرِ(أي أصل) قُلُوبِ الرِّجَالِ"[2]فهي صفةُ الرجال كما أنَّه طريق الرجال.

---

[1] رواه ابن حبان في صحيحه برقم 194وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم

[2] رواه البخاري برقم 6132

قد يُخيَّلُ للبعض أنَّ العملَ الجهادي اليوم بحاجةٍ إلى الكمِّ – فقط – لا الكم والكيف معاً، سواء على المستوى القيادي أو على مستوى القواعد، فتجييشُ الأمةِ وشحنها وشحذها وتجنيدُها، أمرٌ ملِحٌ يدفعُنا إلى التجاوز وغضِّ الطرف عن بعض الصفاتُ الشخصيَّةُ التي نُجمعِ على ضرورةِ توافرها بحجةِ أنها يُمكنُ أن تأتي أثناء المسيرةِ، وذلك من خلال الوعظِ والإرشاد، والترغيب والترهيب.

وهؤلاء أرى – مع تقديري لاجتهادِهم وحرصهم – أنَّهم قد جانبوا الصَّواب في جُزئيةٍ مهمةٍ من هذا التَّحرك التجميعي، ألا وهي أنَّ تحرِّي الكيف مهمٌ جداً في بعضِ الصَّفاتِ الأخلاقيةِ والشخصية، وذلك أنَّ هناك صفات لا يمكنُ أن تأتي بالطريقة التقليدية، والأسلوب الدَّعوي ومنها: (**الأمانة**) فهي متجذرةٌ ابتداءً في القلب كما أخبر النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- .

إذاً لا معنى للتغاضي عن ضرورة توفُّر مثل هذه الصفات في الشخصية الجهادية وخاصةً التي **تقود العمل وتمضي به وتتعاطاه** بحجةِ أنَّ ما لا يمكن أن يتحقق اليوم، يمكن أن يتحققُ غداً!! لأنَّ من الصفات ما لم يكن مُتحققاً اليوم، لا يمكن أن يتحقق لا اليوم ولا غداً!!.

وهذا ما أكَّدهُ النبيُّ – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- بلِسانِ النُّصحِ والشفقةِ لأبي ذرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عندما سأله أن يستَعْملهُ فقال له: "يا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةُ وَإِنَّهَا يوم الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إلا من أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الذي عليه فيها"[1] هذا لضَعفٍ فيه – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – لا لشيءٍ آخر، فهو من شهِدَ له خليلُه– صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- يوم قال: "مَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ وَلا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ عَلَى ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْكَ يَا أَبَا ذَرٍّ "[2] ومع ذلكَ مُنِعَ منها رغمَ أنَّهُ أمينٌ عليها، ولكنَّه ضعيفٌ عن حقِّها. أمَّا من كان من أهلها فخانَ ولم يعدِل ولم يؤدِّ الحقَّ الذي عليه فيها؛ فالخزيُ والنَّدامة كما قال النووي رحمه الله: (وأما الخزيُ والنَّدامة فهو في حقِ من لم يكُن أهلاً لها، أو كانَ أهلاً ولم يَعْدِل فيها، فيُخزيه الله تعالى يوم القيامة، ويفضحُه ويندمُ على ما فرَّط)[3]

---

[1] رواه مسلم برقم1852

[2] رواه ابن حبان في صحيحه برقم 7132 قال الشيخ شعيب الأرناؤوط :حديث صحيح إسناده قوي

[3] شرح النووي12/ 210

ولقد بوَّب البُخاري في صحيحه[باب: الجهادُ ماضٍ مع البرِّ والفاجِر] وهذا ما قد يُحتجُّ به على التَّساهلِ في الفرزِ للمناصِب القياديةِ.

إلاَّ أنَّ صاحب الفتح رحمه الله وضَّح المعنى وشَرحهُ حين ربَطَ ذلك بحديث "الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" فذكر أن المقصود من ذلك هو بقاءُ الأجرِ والمغنم إنما يكونُ من الخيلِ بالجهاد، لا المقصودُ التأكيدُ على الصِّفة والخُلُق فقال:(إنما يكونُ من الخيل بالجهاد – يعني الأجر والمغنم– ولم يُقيّد – يعني الحديث – ذلكَ بما إذا كان الإمامُ عادلاً، فدلَّ على أنْ لا فرقَ في حُصولِ هذا الفضل بين أن يكونَ الغزو مع الإمامِ العادل أو الجائر)[1]

ثم أنَّ النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– قال:"مع البر والفاجر" ولم يقل الخائن فقد يكون الرجل فاجراً في بعض تصرفاته ولكن لا يكون خائناً، أما إذا اجتمع الفجورُ والخيانة معاً، فمن الخيانة حينئذ أن نقدِّم مثل هذا بحجة أن فجوره على نفسه – وهو قولٌ صحيح– ولكن هل خيانتُه على نفسه أيضاً؟!

"ياأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ"

قال ابن مسعود – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أحسنُ الناس فراسةً ثلاثة: العزيزُ حين تفرَّس في يوسف فقال: عسى أن ينفعنا أو نتَّخذه ولداً، وبِنتُ شعيبٍ حين قالت لأبيها في موسى: استأجِرهُ إنَّ خيرَ من استأجرتَ القوي الأمين، وأبو بكرٍ حين اسْتَخلفَ عمرَ[2] .

- " أبايِعُكُم على أن تَمْنَعوني مما تَمنعون مِنه نِساءَكم"!! بهذا الوضوح أراد النبيُّ – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– أن يؤمِّن نفسهُ ودعوته، وهكذا أراد أن يستأمِن ممن جاؤوا يبايعونه، وكان ذلك في وقتٍ كان عليه الصلاةُ والسَّلامُ فيه مُطارداً وأصحابه، تتربَّص قريشٌ بهم الدَّوائر، وتتفننُ بألوان الفتن لصدهم عن دينهم.

ولا تحسبنَّ عهداً وميثاقاً وأمانةً يحملها أولئك في وقتٍ كهذا أمراً هيناً، أو صفقة يبزق من ورائها أملاً قريباً، أو نصراً عزيزاً.!! فاعترض القومَ أبو الهيثم بن التَّيِهان فقال: يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حِبالاً

---

[1] فتح الباري 6/ 56

[2] تفسير القرطبي9/160

وإنَّا قاطعوها(يعني اليهود) فهل عسيتَ إن نحنُ فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع وتدعنا؟! فتبسَّم رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– ثم قال: " بَلِ الدَّمُ الدَّم، والهَدَمُ الهدم"[1] إنَّها أمانةُ المبايَع كما حرص أن تكون أمانة المبايِع.

أمانةُ الطريق:

أيها الفارس: إنَّ طريقنا بحاجةٍ إلى من يكون أميناً في قوله، أميناً في بيعته، أميناً في عمله، أميناً في مسئولياته أمام الله وأمام قيادته وأمام الآخرين، وإلاَّ فإن البيعة والعهد يبقيان مجردكلام، ولن يُصدِّقهما إلا الوفاء بهما والأمانة لهما، لذلك يقول عمر – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – (لا يُعجبنَّكم من الرجل طَنْطَنَتَهُ، ولكنه من أدى الأمانة وكفَّ عن أعراض الناس فهو الرجل)[2]

إنَّك مؤتمنٌ على أعراض الناس وعلى أرواحهم وأموالهم، وأيُّ تضيع لهذه الحقوق من خلال التساهل أوغضِّ الطرف أوالمجاملات، فهو من خيانةِ الأمانة "وَالمؤمِنُ مَن أمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمائِهِم وأَمْوالِهِم"[3]

- فحمل السلاح أمانةٌ وأداؤها أن تتقي الله في دماء النَّاس فلا تُريق دماً إلاَّ بحقٍ تعلمه.
- والغنيمةُ أمانة وأداؤها أن تتقي الله في أموال النَّاس فلا تستبيحُها إلا بحق.
- والسبي أمانة وأداؤها أ ن لا تستحلَّ أعراض النَّاس إلا بحق.
- كما أنَّ البيعة أمانة فلا تُعطيها إلا لمن تثقُ بصدقه وأمانته وكفاءته، وإلاَّ فقد وسدَّت الأمر لغير أهله وهي بالتالي خيانةٌ تشارك فيها وتتحملُ وزرها ووزر كل خطأ يبدُر عمن أعطيتها، أو كارثةٍ تحلُّ بسببه.

ولقد أراد النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– أن يؤكد خطورة الأمر حين ربط تضييع الأمانة بالأمور العظيمة التي تحدث بين يدي الساعة فردَّ على الأعرابي الذي سأله متى الساعة بقوله:"إذا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ قال" كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قال: إذا وُسِّدَ الأَمْرُ إلى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ"[1]

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام2/ 291
[2] الزهد لابن المبارك1/ 243
[3] رواه الترمذي برقم2627 وقال الألباني رحمه الله حديث حسن صحيح

إنَّه طريقٌ لا بدَّ فيه من الأمانةِ من مُبتداه إلى مُنتهاه، وأي خللٍ في هذا المبدءِ أثناءَ الطريق يعني الانحرافُ الذي يجرُّ إلى الخروجِ عن الجادة، والابتعادِ عن الصواب، وضياع الهدف، والبعد عن الحق الذي هو الغايةُ التي نسعى من أجل تحقيقها. فإذا أعطيتَ صفقة يدِكَ، أو تحملتَ مسئوليةً أُوكِلَتْ إليك..

فلا تجري مع كل ريح

إنه الإمعة كما يُعرِّفه ابن مسعودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وهو (الذي يجري مع كل ريح) ويرضعُ من كل ثدي، ويجعل أذنه وعاءً لكل قول، وقلبه ملاذاً لكل شبهة!! يجري على حسبِ ما يريدُه هواه، ويقفُ حيثُ يقف. يُرضِي هذا ويُجامِلُ ذاك، بعيدٌ من الأمانة كبعد المشرقين وبعد المغربين، وهذا ما نبَّه عليه أبو هريرة رضي عنه حين حذَّر من هذا المسلك بعدما عَرَفَ أنَّ من لم يكُن أميناً مع النَّاس لا يكونُ أميناً عند الله، فروى عن رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- قوله:"ما ينبغي لذي الْوَجْهَيْنِ أَنْ يَكُونَ أَمِيناً"[2]

والمجاهدُ الحق لا بدَّ أن يكون له وجهٌ واحدٌ، وقلبٌ واحدٌ، ولسانٌ واحدٌ، أما تعدد الوجوه والقلوب والألسن فهي صفةٌ لا تنتمي إلى المفهوم الذي نُريد، ولا تليقُ بالمنهج الذي نَطْلُب، ولا تنبغي للشخصية التي نَبْنِي، فنحن نتطلَّع إلى بناء شخصيةٍ جهاديةٍ تفهم الأمانة فهماً عميقاً، وتعيشها واقعاً، وتتخذها منهج حياةٍ تتلألأُ من خلالها بين الخَلْقِ، وتُعْرفُ من خلالها بالحق؛ فكما أن الجهاد ذروة سنام الإسلام فكذلك الأمانة لابدَّ أن تكون ذروة سنام أخلاق المجاهد في سبيل الله.

جيوبٌ مخروقه

الجيوب - جمع جيب - وهي في المفهوم الدعوي: مجموعةٌ من الأفراد يتخفَّون جانباً بعيداً عن عيون قيادتهم، وعيون إخوانهم لأمرٍ اختلفوا فيه معهم مما يسوغ فيه الخلاف!! وهناك يكونُ النَّقد والتجريح وأحياناً التَّحريض ثمَّ الخروج عن الطاعة!!.

وطريقٌ تتفرعُ منه جيوبٌ لمجردِ الانتصار لرأي أو الاختلاف حوله، أو النزاع حول مجردِ فكرةٍ أو اقتراحٍ - لا يُزيدُ في الهدفِ المنشودِ ولا يُنقِص، أو يزيدُ ولكن زيادة لا تستحق معها أن تصل الأمور إلى مرحلة الشِّقاق والانشقاق- لطريقٌ يتهددُه الانزلاق والانجراف، وتتشعبُ فيه طرقُ السالكين إلى نهاياتٍ لم

---

[1] رواه البخاري برقم 59

[2] رواه أحمد برقم 7877 قال الشيخ شعيب الأرناؤوط : حديث قوي, وإسناده هنا منقطع

تُقصد ولم يُرسم لها!! نهاياتٌ تتجرعُ معها الأمة – قبل الجماعة والأفراد – ويلات لا تقِلُ عن الويلات التي تعيشُها على يدِ أعدائها؛ إذ الاتفاق على عداءِ العدو ممكن، أما الاتفاق على وحدةِ الفكرةِ والطريقةِ والأسلوب فغير ممكن، مما يعني – والحال كما يريدُه أهل الجيوب– مزيداً من الفرقة والنزاع، ومن ثمَّ مزيداً من تكالب الأمم ومزيداً من التأخر والهزيمة!!

وهذه الجيوب تتنافى مع مبدأ الأمانة التي نطلبُ فهي:

أولاً: نوعٌ من المؤامرة بنيةٍ حسنة –كما يظنُ أصحابها – للوصول إلى الأصلح!! إذ أن طبيعةَ المؤامرات أن تتمَّ بالخفاءِ بعيداً عن العيون .. عيون الرقباء وعيون الناصحين وعيون المشفقين.

وهي ثانياً: نوعٌ من الخروج على الطاعة وتبييت الشر، إذ لو كان الأمرُ خيراً لتداعوا إليه ودعوا إليه وأظهروه.

وهي ثالثاً: نجوى لاخير فيها لأنَّها لا تأمرُ بمعروفٍ، ولا تصلحُ بل تُفسد، ولا تبني بل تهدم "لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذالِكَ ابْتَغَآءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً"[1] وبالتالي تأتي النتيجة الحتمية للنجوى: وهو الحزن– وهذا ما يريدُه الشيطان ويسعى إليه ويخطو به مع هؤلاء– "إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ"[2] ليُصيبهم بمرضٍ من أمراض القلوب الذي يُعيقها ويثقلها ويقعدها بل ويضلها؛ فالنجوى دون الجماعةِ طريق إلى البطالة، بل طريقٌ إلى الضلالة كما صوَّرها الخليفة الخامس رحمه الله بقوله:(ما انتجى قومٌ في دينهم دون جماعتهم، إلاَّكانوا على تأسيس ضلالة)[3]

وهي رابعاً: ليست اجتهاداً كما يُصوِّرها البعض، إذ الاجتهاد بحاجةٍ دوماً إلى التقويم، وإلى الحكم له أو عليه من أهل التخصص والمعرفة، فهل يُمكِنُ ان يكون ذلك والامرُ سرَّاً؟!

وهي خامساً: فيها شبهةُ غدرٍ وهي صفةٌ نُعيذُ بها كل من سلك هذا الطريق. فأيُ محاولةٍ لتمزيقِ الصفِ بعد التئامه، أو بعثرته بعد رصّه، أو تفريقه بعد جَمْعِه –لمجردِ اختلافٍ في الرأي، أو تباين في وجهات

---

[1] النساء 114

[2] المجادلة 10

[3] الزهد للأمام أحمد 291

النظر– هو نوع غدرٍ يُنصب لصاحبِه بسببه لواءٌ يُعرف به يوم القيامة "إذا جَمَعَ الله الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يوم الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ فَقِيلَ هذه غَدْرَةُ فُلانِ بن فُلانٍ"[1]
وبالتالي فإنَّ طريقنا لا يصلحُ له إلاَّ من صوَّره مهيارُ الديلمي بقوله:

كِلفٌ بأنْ يوفي الأمانة حافظٌ للعهدِ تعرفهُ الحقوقُ وتعسِفُ

وأنا هُنا لا أقصدُ الصَّادقين من أبناءِ المسيرةِ الذين رُبَّما رَأوا الخطأَ والاعوِجَاجَ، وأخذهم الحِرصُ والخوف على مسيرتهم من السقوطِ فنصحوا وبيَّنوا ثُمَّ لم يُسمع لهم، أو يُهتم لكلامِهِم، فأخذوا جانباً، ليُصلحوا بأسلوبٍ آخر لا ليُشهِّروا، وليبحثوا لا لِيتناجوا، وليَبْنُوا لا ليهدِموا، فهؤلاءِ لايُصنَّفون مع أولئِك، فلِكُلِّ تصرُّفٍ تَصنيفُه الذي يليقُ بِه.

من يأخذ هذا الطريق بحقه؟!

أستوحي هذا العنوان التساؤلي من قول النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– لأصحابه الفرسان يوم أحد: "مَن يَأْخُذُ هذا السَّيْفَ بِحَقِّه"؟! فقام الزبير بن العوام وعلي بن أبي طالب وغيرهم من الصحابةِ كلٌ يقول: أنا يا رسول الله، والنبي يُعْرِضُ عنهم ويقولُ"مَن يَأْخُذُ هذا السَّيْفَ بِحَقِّه"؟! حتى قام أبو دجانة سماك بن خرشة فقال: أنا آخُذُه يا رسول الله بِحِقِّه، فما حقُّه؟ قال: "أن لا تَقْتُلَ به مُسْلِماً، ولا تَفرَّ به عن كافر" – وفي رواية – قال: "أنْ تَضْرِبَ به في العدو حتى يَنْحَنِيَ" فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يَختالُ عند الحرب، فأخذَ السَّيف من رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– وأخرج عصابة فعصب بها رأسهُ، فكان لا يَمُرُّ بكافرٍ إلا فلقَ هامَتَه، ولا بشيءٍ إلا أفراه، فضربَ به حتى جاء به قد حناه، فقال رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– : أعطيته حقَّه؟؟ قال نعم.[2]

و"ذو الفقار" – وهو اسم السيف الذي عرضه النبي – رمزٌ أراد من ورائه – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– أن يؤكد على معنى الأمانة والقوة في أخذ الأشياء –كل الاشياء– بحقِّها ما دُمتَ قد قبلتها وتحمَّلت مسئوليتها، وهو نوع من التربية بالموقف أراد النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– من خلاله أن يكون درساً

[1] رواه مسلم برقم 1735
[2] انظر القصة في كتب السير

عملياً لجميع أصحابه والأمة من بعدهم – درسٌ– عنوانه **"خذها بقوة"**إذ أن الامور لا يمكن أن تَصْلُح وتؤتي أُكلها مالم تُؤخذ بقوة، وتُحمل بقوة، وتُؤدَّى بقوة.

ونحن أيضاً نقول: "من يأخذ هذا الطريق بحقه"؟!

فمن قال أنا فليعلم إذاً أنَّ حقَّه:

- أن تدخله بتجرد
- وتَحوطَه بإخلاص
- وتعملُ فيه على بصيرة
- وتنْشطُ فيه بِهمَّة
- وتمضي فيه بصبر
- وتَنصح له بأمانة
- وتُدافع عنه بِجِد
- وتبقى وفياً فيه لدماء الشهداء وجُهدِ السابقين وتضحيات المقاتلين وأمنيات اللاَّحقين.

إنَّك مُستعملٌ فاحذر

إن المشاركة في طريق الجهادِ شرفٌ وأمانة، وكل السائرين فيه مستعملون على عملٍ عظيمٍ أبرزُ مسئولياته حماية الدِّين والدفاع عن أرواح المسلمين وأعراضهم وأموالهم، ونصرة المستضعفين، ورفع الظلم عن المظلومين، وعليهم بذلك أن يأتوا بقليله وكثيره، وإلاَّ كان غلولاً معنوياً يُحاسبون عليه بين يدي الله تعالى.

أمَّا الخواص ممن حُمِّلوا مسئوليةً تكليفيةً دون إخوانهم، فليُمسكوا بقوةٍ أو ليدعوا بجرأة. فعن عَدِيِّ بن عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ قال: سمعتُ رَسُولَ الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– يقول: "من اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ على عَمَلٍ فَكَتَمْنَا مِخْيَطًا فما فَوْقَهُ كان غُلُولاً يَأْتِي بِهِ يوم الْقِيَامَةِ. قال: فَقَامَ إليه رَجُلٌ أَسْوَدُ من الأَنْصَارِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إليه، فقال: يا رَسُولَ الله اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ، قال: ومالك؟! قال: سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا، قال: وأنا أَقُولُهُ الآنَ من اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ على عَمَلٍ فليجيء بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ فما أُوتِيَ منه أَخَذَ وما نُهِىَ عنه انْتَهَى"

إنها من أعظم صفات المؤمنين"وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ"[1]

وإن طريقاً تفشوا في سالكيه الأمانة بمعناها الواسع لطريق خير وبركة ونصرٍ وتمكين.

الوصية السابعة

عضُّوا عليها بالنواجذ

كلماتٌ أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء، تؤتي أُكلها كل حينٍ لمن أخذ بها واتخذها منهج حياةٍ، وطريقةَ عمل، ونبراس طريق لمن تأمَّل دقيقاً وتدبَّر عميقاً قول الله عزَّ وتعالى:"إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ"[2].(هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمانٍ أو مكانٍ؛ ويشمل ما يهديهم إليه كل منهجٍ وكل طريقٍ، وكل خيرٍ يَهتدي إليه البشر في كل زمانٍ ومكان)[3].

يقول صاحب أضواء البيان:(ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنَّ هذا القرآنَ العظيم الذي هو أعظم الكتب السماويةِ وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهداً برب العالمين جلَّ وعلا، يهدي للتي هي أقوم: أي الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب)[4].

ولمن يّتدبَّر مليَّاً قول المعلِّم – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- :" تَرَكْتُ فِيكُمْ ما لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إن اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ الله"[1] وقوله: "فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ فَتَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ"[2]

---

[1] المعارج 32
[2] الإسراء9
[3] الظلال4/ 2215
[4] أضواء 17/3(أتمنى الرجوع إلى المصدر ومطالعة ما فتح الله به على الشيخ في تفسير هذه الآية المباركة)

إنَّ هذين الأصلين العظيمين(الكتاب والسنَّة) الداعيينِ إلى الوحدانيةِ المطلقةِ، وتزكية النفس، وحفظ كيان الجماعة ليدعواننا إلى سباقٍ مضمارُه ساحةُ الحياةِ الواسعةِ؛ لنبرهِنَ في كل يومٍ وفي كلِّ مجال تمسُكنا بهما إيماناً وعملاً وتحاكُماً.

إنَّ هذا التأكيد من الله جلَّ وتعالى وهو يخبرنا بأنَّ كتابهُ يهدي للتي هي أقوم، والتأكيد من النبي- صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- بأنَّ ما جاء بهِ حفظٌ من الضلال، ثمَّ أمرهُ بالعضِّ عليه بالنواجذ؛ ليفهمُ منه أنَّ المعرضون متروكون لهواهم(هوى الإنسانِ)، الإنسان العجول الجاهلُ بما ينفعه وما يضُرُّه، المندفعُ الذي لا يضبِطُ انعالاتهُ ولو كان من ورائها الشرَّكله.

إدراكٌ فطري

سبحان الله!! كيف أدركَ الوليدُ بنُ المغيرة يومها ما أدرك .. حين يقول- وهو على الشرك- واصِفاً كتاب الله تعالى:(والله إن له لحلاوةٌ، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لَمُثمر وإنَّ أسفله لمغدِق، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى عليه، وإنه ليحطم ما تحته وما يقول هذا بشر)[3]؟!

أدرك ذلك لأنه خبيرٌ بكلامِ البشرِ، وهوى البشر، ونزوات البشر، وتجاوزات البشر، وحدود البشر.

ونحنُ اليوم بحاجةٍ –حين نعلم عظمة كتابِ اللهِ وسنة رسوله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- إلى وقف الفوضى في تقديم أقوال البشر على قول ربِّ البشرِ وقولِ سيد البشر!!

بحاجةٍ إلى وقف التجاوز الصارخِ في كثيرٍ من الأحداث والمواقِفِ على نصوصِ الكتابِ والسُنة..

بحاجةٍ إلى تربيةٍ روحيَّةٍ ونفسيَّةٍ وعقليَّةٍ لاستيعابِ معنى قوله تعالى:"وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا"[4]

---

[1] رواه مسلم برقم 1218

[2] رواه أحمد برقم 17185 وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح بطرقه وشواهده ، وهذا إسناد حسن

[3] مختصر السيرة1/ 102

[4] النور 36

إنَّ حاجتَنا تلك لا تنبعُ من فراغ؛ وإنما من رغبةٍ صادقةٍ لحفظِ مسيرتنا التي سُقيت بالدماءِ وأحيطت وحميت بمزيدٍ من الجراح والأسرِ والسِجن والشتات من أن يخترقُها متهورٌ طائش، أو مُتحمِسٌ جاهل لا يعرف للشرع قدراً ولا للشريعةِ موقعاً ومكانةً، وما يدريكَ لعلّ ّّه من المخذِلين المرجفين ولكن بثوبٍ جديدٍ وطريقةٍ تحتاجُ إلى فكِّ رموزِها المعقَّدة!!

إنّها الحاجةُ إلى صيانةِ تلك الدماءِ الطاهرةِ الزكيَّةِ التي نحملُ أمانة الوفاءِ لها في أعناقها، ونعتقدُ أنّنا مسئولون عنها بين يدي الله تعالى إن فرَّطنا فيها.

تربيةٌ شافعية

(إذا صح عندكم الحديثُ عن رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– فقولوا به ودعوا قولي، فإنِّي أقولُ به وإن لم تسمعوا منى. وفي رِواية: فاضرِبُوا بقولي عَرض الحائط فلا قول لي مع رسول الله)[1] إنها التربية التي فطِنَ لها الشافعي –رحمه الله– في تربيته لطلابه وفطِن لها غيرُهُ من أهل السنةِ والجماعة، ولن يستغني عنها القائد في تربيته لأفرادِه في ميدان التدريب العسكري، أو ميدان القِتال الجبهوي، أو ميدان العمل الحياتيّ اليومي فالعلمُ قبل العمل"فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الله وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ"[2]

سنملِكُ أمرَ دُنيانا ... إذا القرآنُ أحيانا
ونورٌ في مفاوزِنا ... وحُكمٌ في قَضايانا
كتابُ الله أرشدَنَا ... إلى مافيه مثْوانا
جعلنا من جماجِمِنا ... لشرعِ الله بُنيانا
بَذلنا النَّفسَ في شَمَمِ ... إلى الإصلاحِ قُربانا
سلوا الأمجادَ تعرفُنا ... وتعجبُ من سجايانا
فإنا معشرٌ نُجبٌ ... عَرفنا اللهَ شُبَّانا

[1] البداية والنهاية10/ 254
[2] محمد 19

معاني الخيرِ نُنشِدُها ترانيماً وألْحانا

نتيجةٌ حتميَّة..

(واعلم أن كثرةَ وقوع الحوادثِ التي لا أصل لها في الكتاب والسنة؛ إنَّما هو من تركِ الاشتغالِ بامتثال أوامِر اللهِ ورسولِه، واجتنابِ نواهي الله ورسولِه، فلو أنَّ مَن أرادَ أن يَعمل عملاً سأل عمّضا شرع اللّهُ في ذلك العملِ فامتثلهُ، وعمَّا نهى عنه فيه فاجتنبهُ؛ وقعتِ الحوادثُ مقيدة بالكتاب والسنة... وفي الجملةِ فمن امتثل ما أمر به النبيُ – صلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- في هذا الحديث[1] وانتهي عما نهى عنه، وكان مشتغلاً بذلك عن غيره؛ حصلَ له النجاةُ في الدنيا والآخرة، ومن خالف ذلك واشتغل بخواطِره وما يستحسنُه وقع فيما حذَّر منه النبي – صلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- من حال أهل الكتاب الذين هلكوا بكثرةِ مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم وعدم انقيادهم وطاعتهم لرسُلهم)[2]

فهي دعوةٌ صادقةٌ.. ومطلبٌ مُلحٌ للخروجِ من ظلماتِ الاختلافِ حول أقوالِ الرجالِ، إلى نورِ الاجتماع على قولِ الله وقولِ رسوله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- .

الوصية الثامنة

كن فارساً في كل ميدان

أيها الفُرسان:

[1] حديث"ما نهيتكم عنه فاجتنبوه.."رواه مسلم1337

[2] جامع العلوم والحكم 95

إنَّ ميدانكم ميدانٌ واسعُ رحيب، فهو ليس ميدان القِتالِ فقط، وسلاحكم سلاحٌ متنوعٌ، فهو ليس الرَّشاشُ والمِدفع فحسب، وقوتُكم قوةٌ مُتجددة، فهي ليست القوة الماديةُ ولا غير. بل هناك ميدانٌ آخر يجِبُ أن تقتحموه بقوة، وسلاحٌ آخر يجبُ أن تحملوهُ بصدق، وقوةٌ أخرى لا بدَّ أن تتدَّرعوا بها في كل وقت.

إنَّه ميدانُ العِبادة..

وسلاحُ التَّقوى..

وقوَّةُ الإيمان..

إنَّ الفُروسيةُ التي لُقِبتُم بها – وأنتم لها أهل– لا تنحصِرُ في جانبٍ واحِدٍ وهو الجانب القتالي فقط، بل الفارسُ الحق من استجمع الصِّفات الفروسيَّة للفارِس وعاشها وتمرَّسها ومارسها ممارسةً عمليةً صحيحة، فهو بعبارةٍ أخرى (فارسٌ يمشي على الأرض)

فارسٌ في صبرِه وجهادِه..

فارسٌ في نُبلِه وأخلاقِه..

فارسٌ في تقواهُ وعبادتِه..

ولن يستطيع الفارِسُ أن يُحافِظ على قوتِه البدنية والقتالية ما لم يكُن لديهِ من القوةِ الإيمانيةِ ما يُعينُه على ذلك، ويُثبِّتهُ على ذلك، ويدفعُه إلى ذلك.

قال ابن القيم يحكي عن شيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى:(أنَّه صلَّى الفَجرَ مرةً ثُمَّ جَلَسَ يذكُرالله تعالى إلى قَريبٍ مِن انتصافِ النَّهارِ، ثمَّ الْتَفَتَ إليَّ وقَالَ: هذه غَدْوَتِي، وَلو لَمَ أتغدَّ الغَدَاءَ سَقَطت قُوتِي، وقال لِي مرةً: لا أترُكُ الذِّكر إلا بِنيَّةِ إجمَامِ نفسي وإراحتِها لأستعِدَّ بِتِلكَ الرَّاحة لذكرٍ آخر)[1].

فالعبادةُ غذاءُ الرَّوح كما أنَّها غذاء البدن ولا شكَّ في ذلك، فقد قال رسول الله–صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ–: "عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ. وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إلى الله، وَمَنْهَاةٌ عَن الإِثْمِ، وتَكْفِيرٌ للسَّيئَاتِ ومَطْرَدَةٌ للدَّاءِ عَن الجَسَدِ"[2]

[1] الوابل الصيب ص 63

[2] رواه الترمذي برقم 3549 وقال حديث غريب

إنَّ الميدان التَّعبُدي ميدانٌ لا بُدَّ لكم مِنه لِتكونوا قريبين من ربِكم أقوياء به، فالمجاهدُ قويٌ بربِهِ، قويٌ بإيمانهِ، قويٌ بعقيدتِهِ. إنَّ هذه القوة هي عَتَادُكم الذي متى ما فقدتُموه لم ينفعْكُم عتادٌ آخر، وسلاحُكم الذي متى ما أضعتُموه لم يُجْدِ معه سلاحٌ آخر. فالنَّصرُ من عندِ الله ولا يستحِقُّهُ إلا من كان موصولاً بِه كُلَّ الصِّلة، مُعتمِداً عليه كلَّ الاعتماد، موقِناً بمعيَّتِهِ كل اليقين.

درسٌ صعب

"وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ".[1]

لقد كان درساً قاسياً ذلك الدَّرس يوم قال أحدُ المجاهدين من الصَّحابةِ في غزوة حنين: (لن نُغلبَ اليوم مِن قلَّة) فظهر الاتِّكالُ على القوَّةِ الماديَّة دون القوَّةِ الرُّوحيَّة، واغترَّ المسلمون بكثرتِهم، فكان لا بُدَّ من التربيةِ ولو كانت قاسية، ومِن الدَّرسِ ولو كان صعباً، ومن العتابِ ولو كان مُرَّاً، لأنَّ أيَّ خللٍ في هذا المفهوم– مفهوم النصر وأسبابِه– يعني الانحراف الذي لا يستقيم، والهزيمة التي لا تنجبر. فالنَّصرُ للأكثر عبادةً وتقوىً واتِّصالاً، لا للأكثر جَمعاً وعدداً!! وللأكثر التزاماً وصدقاً وتجرُّداً، لا للأكثر عُدةً وعتاداً.

فكان يوم حنين وكان الإعجاب بالقوة، فكانت الهزيمة، وكان أن ضاقت الأرضُ عليهم بما رحُبت، وولوا مُدبِرين. ثمَّ أنزل الله سَكِينَتَه ونَصرَهُ على القلةِ التي ثَبَتَتْ، وعَرَفَتْ أنْ لا نَصرَ إلا بِالإيمان والصدق واليقين ولاتِّصال بالله "ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا"[2]

بـهُداهم اقتدِه

أيُها الفُرسان! لقد كان أسلافُكم المجاهدون من الصَّحابةِ والتَّابعين ومن جاء بعدهُم (رُهبانُ ليلٍ وفُرسانُ نهار). قيامٌ بالليل، وصيامٌ بالنَّهار، وما بين ذلك تلاوةٌ للقرآن، وذِكرٌ لله، وتنفلٌ ما وسعهم ذلك ووجدوا له بعد عنائهم وقتاً، فاستراحة أحدهم كانت بذلك الزادِ الكبير، وتلك العِبادة المتنوعة.

---

[1] التوبة 25
[2] التوبة 26

لقد كانوا بحقٍّ فرساناً في كلِّ مجالٍ يدخُلونه، وكلَّ صهوةٍ يمتطونها، وإليكَ جانباً من فروسيَّةِ أولئك الرِّجال:

- عن جابر بن عبد الله ، قال : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله،، فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ، فَأَصَابَ رَجُلٌ مِنَ المسْلِمِينَ امرأَةَ رَجُلٍ مِنَ المشْرِكِينَ، فَلَمَّا انصَرَفَ رَسُولُ الله قَافِلا أَتَى زَوْجُهَا وَكَانَ غَائِباً، فَلَمَّا أُخْبِرَ، حَلَفَ لا يَنْتَهِي حَتَّى يهرِيق فِي أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ دَماً، فَخَرَجَ يَتْبَعُ أَثَرَ رَسُولِ الله، فَنَزَلَ رَسُولُ الله مَنْزِلا، فَقَالَ: "مَنْ رَجُلٌ يَكْلَؤُنَا لَيْلَتَنَا هذِهِ"؟ فانتدبَ رَجُلٌ مِنَ المهَاجِرِينَ(وهو عمار بن ياسر)، وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ(وهو عباد بن بشر) قَالا: نَحْنُ يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ:"فَكُونَا بِفَمِ الشِّعْبِ"، قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ الله وَأَصْحَابُه نَزَلُوا إلى شِعْبٍ مِنَ الوَادِي، فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلانِ إلى فَمِ الشِّعْبِ، قَالَ الأَنْصَارِيُّ لِلْمُهَاجِرِيّ: أَي اللَّيْلِ أَحَبُّ إِلَيْكَ أنْ أَكْفِيَكَ أَوَّلَهُ أَوْ آخِرَهُ؟ قَالَ: اكْفِنِي أَوَّلَهُ، قَالَ: فَاضْطَجَعَ المهَاجِرِيُّ، فَنَامَ، **وَقَامَ الأَنْصَارِيُّ يُصَلِّي**، وَأَتَى زَوْجُ المرْأَةِ، فَلَمَّا رَأَى شَخْصَ الرَّجُلِ، عَرَفَ أَنَّهُ ربيئَةُ القَوْمِ، فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ، فَوَضَعَهُ، وَثَبَتَ قَائِماً يُصَلِّي، ثُمَّ رَمَاهُ بِسَهْمٍ آخَرَ، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ، وَثَبَتَ قَائِماً يُصَلِّي، ثُمَّ عَادَ لَهُ الثالِثَة، فَوَضَعَهُ فِيهِ، فَنَزَعَهُ، فَوَضَعَهُ ثُمَّ رَكَعَ فَسَجَدَ، ثُمَّ أَهَبَّ صَاحِبَهُ، وَقَالَ: اجْلِسْ، فَقَدْ أُتِيتَ، فَوَثَبَ، فَلَمَّا رَآهُمَا الرَّجُلُ عَرَفَ أَنَّهُ قد نَذِرَ بِهِ، هَرَبَ، فَلَمَّا رَأَى المهَاجِرِيُّ مَا بِالأَنْصَارِيّ مِنَ الدِّمَاءِ، قَالَ: سُبْحَانَ الله أَفَلا أَهْبَبْتَنِي أَوَّلَ مَا رَمَاكَ؟ قَالَ: كُنْتُ فِي سورَةٍ أَقْرَأُهَا، فَلَمْ أحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أُنْفِذَهَا، فَلَمَّا تَابَعَ عَلَيَّ الرَّمْيَ، رَكَعْتُ فَآذَنْتُكَ، وَايْمُ الله لَوْلا أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْراً أَمَرَنِي رسُولُ الله بِحِفْظِهِ، لَقَطَعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا أَوْ أُنْفِذَهَا"[1]

- أخبرَحمادُ بنُ جعفر بن زيدٍ أنَّ أباهُ أخبرهُ قالَ: خرجنا في غزاةٍ إلى كابُل وفي الجيشِ صِلَةَ[2] فنزلوا فقلتُ لأرمُقَنَّ عَمَلهُ، **فصلَّى ثمَّ اضطجَعَ فالتَمس غَفلةَ النَّاسِ ثُمَّ وَثَبَ فَدخلَ غَيْضَةً[3]**

---

[1] رواه ابن حبان في صحيحه برقم 1072

[2] صلة بن الأشيم الزاهد العابد القدوة أبو الصهباء العدوي البصري زوج العالمة معاذة العدوية (سير أعلام النبلاء3/495)

[3] الشَّجر الملتف

فدخلتُ، فتوضأَ وصَلَّى (ولا شكَّ أنَّ ذلكَ كان بعد جُهدٍ وتعبٍ شديدينِ من أثر المعركةِ التي خاضوها طوال يومِهم) ثُمَّ جَاءَ أسدٌ حتىَّ دَنا مِنهُ، فَصَعَدتُ شَجَرةً، أفَتَراهُ التَفَتَ إليهِ حتىَّ سجدَ؟ فقلتُ الآنَ يَفترسُهُ فَلا شَيءَ، فَجَلَسَ، ثُمَّ سَلَّمَ. فَقَالَ: يَا سَبُعُ ! اطْلُبِ الرِّزْقَ بِمَكَانٍ آخَرَ. فَوَلَى وَإِنَّ لَهُ زَئِيرًا أَقُولُ؛ تَصَدَّعَ مِنْهُ الْجِبَالُ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ، جَلَسَ، فَحَمِدَ اللهَ بِمَحَامِدَ لَمْ أَسْمَعْ بِمِثْلِهَا، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ أَن تُجِيرَنِي مِنَ النَّارِ، أَوَ مِثْلِي يَجْتَرِئُ أَنْ يَسْأَلَكَ الْجَنَّةَ؟[1]

- وعن الشيخ عبد الواحد بن زيد –رحمه الله– قال بينما نحنُ ذاتَ يوم في مجلِسنا هذا قد تَهَيَّأنا للخروج إلى الغزو قد أمرت أصحابي بقراءة آيتين، فقرأ رجل في مجلسنا "إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ" إذ قام غلامٌ في مقدارِ خمس عشرةَ سنة أو نحو ذلك وقد مات أبوه وورَّثه مالاً كثيراً، فقال يا عبدَ الواحد بن زيد "إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ"؟؟ فقلتُ: نعم حبيبي، فقال: إني أُشهِدُكَ أنِّي قَد بِعتُ نفسي ومالي بأنَّ لِيَ الجنَّة. فقلتُ لهُ إنَّ حدَّ السَّيفِ أشدُ من ذلكَ وأنت صبيٌّ، وإني أخافُ عليكَ أنْ لا تَصبِرَ أو تَعجَزُ عن ذلكَ، فقال: يا عبد الواحِدَ أبايعُ الله بالجنة ثمَّ أعجز؟! أُشهِدُ الله أَني قد بايعتُه. قال عبد الواحد فَتَقاصَرَتْ إلينا أنُفسنا وقُلنا: صبيٌّ يَعقِلُ ونحنُ لا نعقل؟ فخرجَ مِن مالِه كُله، وتصدَّقَ بِه إلا فرسَهُ وسلاحَهُ ونفقتَهُ، فلمَّا كانَ يومُ الخروجِ كانَ أولَ من طَلَعَ علينا فقال: السَّلام عليكَ يا عبد الواحد، فقلتُ وعليكَ السلام ربحَ البيع إن شاء الله، ثم سِرنا وهو معنا **يَصومُ النَّهار ويقومُ اللَّيل ويخدمُنا ويخدم دوابَّنا ويَحرُسُنا إذا نِمنا** حتى إذا انتهينا إلى دارِ الروم، فبينما نحنُ كذلك إذا بِه قد أقبلَ وهو يُنادي: واشوقاهُ إلى العيناء المرضِيَّة، فقال أصحابي لعلَّه وسْوَسَ هذا الغلام واختلطَ عقلُه، فقلت: حبيبي وما هذه العيناءُ المرضية، فقال: قد غفوتُ غفوةً فرأيتُ كأنَّه قد أتاني آتٍ، فقالَ لي: اذهب إلى العيناء المرضية فَهَجَمَ بي على روضةٍ فيها بحرٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ، وإذا على شاطئ النَّهرِ جوارٍ عليهن من الحُلل ما لا أَقدِرُ أن أَصِفَهُ، فلما رأيْنَني استبشرن

[1] سير أعلام النبلاء3/ 499

بي، وقُلن: هذا زوجُ العيناء المرضية. فقلتُ السلام عليكن: أفيكُن العيناء المرضية؟ فقُلن: لا نحنُ خدمُها وإماؤها، امض أمامَك، فمضيت أمامي، فإذا أنا بنهر من لبنٍ لم يتغير طعمُه في روضةٍ فيها من كُل زينةٍ، فيها جوارٍ لَمَّا رأيتُهن افتتنتُ بِحُسنهن وجمالهن، فلما رأينني استبشرن، وقُلن والله هذا زوجُ العيناء المرضية، فقلتُ: السلام عليكن أفيكن العيناء المرضية؟ فقُلن وعليك السلامُ يا وليَّ الله نحن خدمُها وإماؤها فتقدم أمامك، فتقدمتُ فإذا أنا بنهرٍ من خمرٍ وعلى شطِّ الوادي جوارٍ أنْسَيْنَني من خلَّفْتُ، فقلتُ: السلامُ عليكُن أفيكن العيناء المرضية؟ قُلن: لا نحن خدمها وإماؤها امضِ أمامك، فمضيتُ فإذا أنا بنهرٍ آخر من عسلٍ مُصفَّى أمامي، فوصلتُ إلى خيمةٍ من دُرَّة بيضاءَ، وعلى بابِ الخيمةِ جاريةٌ عليها من الحُلي والحُلل ما لا أقدِرُ أن أصِفهُ، فلمَّا رأتني استبشرت بِي ونادَت من الخيمةِ: أيتها العيناء المرضية هذا بَعْلُكِ قد قَدِم، قال: فدنوتُ من الخيمة، ودخلتُ فإذا هي قاعدةٌ على سريرٍ من ذهبٍ مُكلَّلٍ بالدُّر والياقوت، فلمَّا رأيتُها افتتنتُ بِها وهي تقول: مرحباً بكَ يا ولي الله قد دنا لكَ القدوم علينا، فذهبتُ لأعانِقها، فقالت: مهلاً فإنَّه لم يأن لكَ أن تُعانِقني: لأنَّ فيكَ روح الحياةِ، **وأنتَ تُفْطِرُ اللَّيلةَ عندنا إن شاء الله تعالى**. فانتبهت يا عبد الواحد ولا صَبَرَ لي عنها. قال عبد الواحد فما انقطع كلامُنا حتى ارتفعتْ لنا سريةٌ من العدو فَحَمَلَ الغلامُ فَعَددتُ تسعة من العدو قَتَلهم وكانَ هو العاشر، فمررتُ بِه وهو يَتَشَحَّطُ في دَمِه وهو يَضحكُ مِلءَ فيهِ حتى فارق الدُنيا. ولله در القائل:

يا مَنْ يُعانِقُ دُنيا لا بَقَاءَ لها ... يُمْسِي ويُصْبِحُ مَغروراً وغرَّارا
هلاَّ تَركتَ مِن الدُنيا مُعـانَقَةً ... حتى تُعانِقَ فِي الفِردوسِ أبْكارا
إِنْ كُنتَ تَبْغى جِنانَ الخُلدِ تَسكُنُها ... فَيَنْبَغِي لكَ أَنْ لا تَأْمَنَ النَّارا[1]

أيُها الفُرسان!

[1] تفسير روح البيان(سورة التوبة) ص 516

إنَّ ملازمتكم للعبادةِ الجسديةِ والقلبية تهبكُم السَّكينة والإخبات، وتفتحُ عليكُم أبواباً من الخير، وتجعلُ لكم نوراً تمشونَ به، وتُميّزون من خلالِهِ بين الحقّ والباطِل، والصَّوابِ والخطأ.

كما أنَّ مُلازمتكم لها تُعطيكُم الرَّاحة من عناءِ العملِ وتبِعاتِه، فلم يكُن عليه الصَّلاةُ والسَّلام يجدُ راحتهُ من ذلك العناء والجَهدِ إلاَّ بها، فكان إذا نابَهُ أمرٌ فزعَ إلى الصَّلاة، وكان يُنادي بلالاً -رَضِيَ اللهُ عَنْه-: "يا بِلالُ أَقِمْ الصَّلاةَ أَرِحْنا بها"[1]

والعِبادة تنشئُ في القلب حياةً بعد موت، وتُطلقُ فيه نوراً بعد ظُلمة.

(يجدُ الإنسانُ في قلبِهِ هذا النُّور فيجدُ الوضوحَ في كلِّ شأنٍ وفي كلِّ أمرٍ وفي كلِّ حدث.. يجدُ الوضوحَ في نفسه وفي نواياهُ وخواطِرهُ وخُطَّتهُ وحركتَهُ. ويجدُ الوضوح فيما يَجري حَولَهُ سواءً من سُنَّةِ الله النَّافِذة, أو مِن أَعمالِ النَّاسِ ونَواياهُم وخُططهم المستترةُ والظَّاهرة ! ويجدُ تفسيرَ الأحداثِ والتاريخِ في نفسهِ وعقلهِ وفي الواقعِ من حولِه, كأنَّهُ يَقرأُ مِن كتاب !

ويجدُ الإنسانُ في قلبِهِ هذا النُّور, فيجدُ الوَضَاءَةَ في خَواطِرهِ ومَشاعِرهِ ومَلامحِه ! ويجدُ الرَّاحةَ في بَالِهِ وحالِه ومآلِه ! ويجدُ الرِّفقَ واليُسرَ في إيرادِ الأُمورِ وإصدارِها, وفي استقبالِ الأَحداثِ واستِدْبارِها ! ويجدُ الطُّمأنينةَ والثِّقةَ واليقينَ في كُلِّ حالةٍ وفي كُلِّ حين!)[2]

أيها الفرسان! إنكُم الأَوْلى بهذا النُّور لتمشوا بِه في النَّاس فتهدون الضَّال، وتلتقطون الشَّارِد، وتُطَمْئِنونَ الخائِف, وتُحرّرون المستَعْبَد.

التَّميُّزُ سِمةُ الفارِس

نعم إنَّهُ التَّميّزُ. هو ما نُريدُ أن تَصِل إليه، وتجتهدَ من أجل بُلوغِه، فلا يُمكِنُ أن يرضى المجاهدُ أن يكونَ كغيرِه سواءً بِسواء! فمن سَمَتْ روحُهُ، واستعلى فِكْرُه، واتَّقدت هِمَّتُه، وعَظُم مطْلَبُه لا بُدَّ أن يظهرَ ذلِكَ على سمتِهِ وسلوكِه وتصرُّفاتِه.

قد رشّحوك لأمرٍ إنْ فطِنتَ لهُ ... فاربأْ بنفسكَ أن ترعى مع الهَمَلِ[3]

---

[1] رواه أبوداود برقم 4985
[2] في ظلال القرآن- سورة الأنعام
[3] مؤيد الدين الطغرائي

وليس المقصودُ بالتَّميُز التَّعالي على الخلقِ وازدراءِ النَّاس، بل هو الظُّهورُ بالمظهرِ الذي يظُنُّ النَّاس أنَّك وصلت إليهِ، فأنت تحتَ المِجْهرِ عندهُم يُحصونَ عليكَ تصرُّفاتِكَ وأقوالِك وأفعالِك فكُن عِند حُسنِ الظَّنِ بك. وليس المعنى بالتَّالي التَّظاهر والرِّياء بل هي الطَّبيعةُ السَّليمةُ في التَّصرُفِ والفِعلِ والقول. وهي بالتَّالي ليست مِثالِيَّةً نطلُبُها منك فالخطأُ وارد، والزَّلَلُ متوقَّع، ولكِن هي روحُ العودةِ والرُّجوعِ عن الخطأِ، والتَّسامي عن التَّفاهاتِ، والبُعدِ عن ما يُشينُك في أعيُنِ الآخرين. أنتَ سفيرُ هذا الطَّريقِ، وعُنوانُ هذا المشروع، وحجرُ الزَّاويةِ في هذا الجِسم، فأنتَ بالتَّالي مطالبٌ بالمحافظَةِ على نزاهةِ سِفارتِك، ووضوحِ عُنوانِك، ومتانةِ موقعِك.

أيها الفارِس!

على قَدْرِ قُربِكَ من الله يكونُ قربُ الله مِنك .. وعلى قَدْرِ نَصْرِكَ لهُ يكونُ نَصْرُه لك

الوصية التاسعة

كُن واعياً

قالها الفاروقُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فذهبت مثلاً:(لست بِخَبٍّ ولا الْخَبُّ[1] يخدعُني)

إنه الوعيُ العمري المتوهجُ فِطنةً، والممتلئُ حصافةً وانتباهاً يُحذِّرُك من أن تكون غرضاً يستغلُّك أعداؤك، أو وسيلةً يتسللون من خلالها لِواذاً.ينالون مبتغاهُم على حين غفلةٍ من مجاهِدٍ غرٍّ سليمِ القلب طيَّبِ النوايا.

المؤمن غِرٌّ كريم

وَمَا أَنْتَ بالخَبِّ الخَتُورِ ولَا الذِي إِذَا اسْتُوْدِعَ الأَسْرَارَ يوماً أَذَاعَهَا

[1] الخدَّاع(تاج العروس)

نعم.. إننا في مسيرتنا المباركة الطيِّبة بحاجةٍ إلى كل "مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ"[1] لإيماننا المطلق بأنَّ " الْمُؤْمِن غِرٌّ كَرِيمٌ وَالْفَاجِرُ خِبٌّ لَئِيمٌ "[2]..

ولكننا وفي المقابل بحاجةٍ إلى أن يكون هذا النقيَّ الطَّاهر الذي لا غلَّ في قلبه ولا حسد – أن يكون – واعياً فطِناً أريباً لبيباً يعرفُ الخيرَ ليُمارسهُ ويتعاطاه، ويعرف الشرَّ ليتجنَّبه ويتحاشاه.

فطنة حذيفة

وهذا ما فَطِن له حذيفة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – حين يقول:(كان الناس يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– عن الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عن الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي)[3] ولأنَّ باب الجهادِ مفتوحٌ لكلِّ مسلمٍ؛ حيث أنَّه ماضٍ إلى يوم القيامة فمن البديهي أن تتسلَّله دعايةٌ مغرضةٌ، أو تعصِفُ به إشاعةٌ مُغويةٌ، أو يخترقَ الصَّف خَبٌ مخادِعٌ بحاجةٍ إلى من يتصدّى له ويكشِفُ عواره ويُظهِرُ زيفه، ولن يكون ذلك إلاَّ بسلاح الوعي الذي تربّي عليه الفردُ وتلقَّاه ومارسهُ ثُمَّ أتقنه.

ذلك ما ألفت إليه الموجه الأستاذ الراشد حين يقول: [ولذلك وجب على هذه الدعوة المباركة أن تربي أبناءها أيضاً على اكتشاف مخادعة الخب،كل الخب، وتصِفُ لهم لَحْنَ قولِه، وظلماتَ دروبِه وخروقَ استدلالاته.

(فالقلب السليم المحمود هو الذي يريد الخير لا الشر، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشر، فأما من لا يعرف الشر فذاك نقصٌ فيه لا يمدح به)][4] ونحن نقول بما قاله فيما يخصُّ مسيرة الجهاد المباركة، فأعداءُ الحقِّ اليوم يتسلَّلون بوسائل شتَّى يراهنونَ من خلالها على استغلالِنا وخِداعنا وهزيمتِنا معنوياً قبل هزيمتنا

جزء من قول النبي صلى الله عليه وسلم حين سأل "أَيُّ الناس أَفْضَلُ؟ قال كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ قالوا صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ فما مَخْمُومُ الْقَلْبِ قال هو التَّقِيُّ النَّقِيُّ لا إِثْمَ فيه ولا بَغْيَ ولا غِلَّ ولا حَسَدَ" رواه ابن ماجه برقم 4216وصححه الألباني [1]

[2] رواه أبوداوود في سننه برقم 4790وحسنه الألباني

[3] رواه البخاري برقم 3411

[4] العوائق (محمد أحمد الراشد) 146

[محمد أحمد الراشد: مفكر إسلامي من قادة الحزب الإسلامي العراقي، ولد ببغداد1938، وهو متخصص في حقل فقه الدعوة الإسلامية، وقد صدرت له عدة مؤلفات منها (الرقائق – العوائق – المنطلق – المسار – أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية) هاجر إلى الكويت ثم الإمارات.

عسكريا، والتمكُّنِ من عقولنا والتشويشِ عليها من خلال عدم الوعيّ الذي يعيشُهُ كثيرٌ من أبناء الحركة الجهادية اليوم.

خذوا حِذركم!!

قال تعالى:"يا أيُّها الَّذينَ آمنوا خُذا حِذْرُكم"[1] ولن يكونَ المؤمِنُ حذِراً ما لم يكُن واعياً بما يدورُ حولهُ لا في مجال الحربِّ فقط، بل في مجالِ السياسةِ والإعلام والاقتصادِ وما يلُفُّ الحياة من أساسيَّاتٍ لا يسعُ المؤمِن جهلُها.

فهو حذِرٌ من غيرِ خُبثٍ .. سهلٌ من غيرِ غفلةٍ .. حاضرُ الحجَّةِ، واضحُ الهدفِ عميقُ الفهمِ، فقيهٌ بالأولوياتِ محيطٌ بعموميات الحياة مما لا ينبغي للواعي جهلها.

ولا يستوي أن لا يكون المجاهدُ واعياً؛ فالمجاهدُ الحقَّ هو الواعي كما قال ابن القيّم في مدارجِهِ (ولأهلِ الجهادِ في هذا من الهِداية والكَشْفِ ما ليس لأهل المجاهدة، ولهذا قال الأوزاعي وابن المبارك: إذا اختلف الناسُ في شيء فانظروا ما عليه أهلُ الثَّغرِ يعني أهل الجهاد فإن الله تعالى يقول: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلناوإن الله لمع المحسنين")[2]

والوعيُ يظلُّ ناقِصاً مالم يَكُن مُشبعاً بالتجارُبِ ومُصغياً إلى ممارسات الآخرين

تبصَّر في الأمورِ وحنَّكته التجاريبُ اختبارا ًواعتبارا[3]

ذكاءٌ له من يصطاده

"المؤمِنُ كيّسٌ حذِر" هذا الكلام مما لم يُسبق إليه النبي- صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- وأول ما قاله لأبي عزة الجمحي وكان شاعراً فأُسِر ببدرٍ فشكى عائِلةً وفقراً فمنَّ عليهِ النبيِ- صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- وأطلقَهُ بغيرِ فداءٍ، فظفرَ بِهِ بأُحدٍ فقال: مُنَّ عليَّ وذكرَ فَقْرهُ وعِيالَهُ فقال له النبيُّ -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- لا! تَمْسحُ عارِضَيْكَ بمكَّةَ تقولُ: سَخِرتُ بمحمدٍ مرتينِ وأَمرَ بِهِ فقُتِلَ.[4]

---

[1] النساء 71
[2] مدارج السالكين1/ 511
[3] ديوان عبد الغفار الأخرس
[4] فتح الباري 10/ 530

فكُن واعياً صيَّاداً للأذكياء فـ" لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ من جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ"[1]

الوصية العاشرة
الحكمةُ تحْكُمنا

الحكمةُ لا المهانة والتنازُل .. والحِلمُ لا المذلة والخنوع

حكمةٌ لا تُقعدُنا عن جهادِنا، ولا تُخرجنا عن طريق جهادنا..

الحكمةُ في القولِ .. الحكمةُ في العملِ .. الحكمةُ في التصورِ والا ستنتاجِ من المواقِفِ والأحداثِ والتصرُفات، هذا ما نطلبه من الأخ المجاهد..

و لاخير في حِلمٍ إذا لم يكن له بوادرُ تَحْمِي صفْوَهُ أنْ يُكَدَّرا
ولا خيرَ في جهْلٍ إذا لم يكُن له حكِيْمٌ إذا ما أوْردَ الأَمْرِ أَصْدَرا[2]

(وأصلُ الحكمة ما يُمتنَعُ به من السَّفه[3]).. ونحن نُريدُها حكمةً واعيةً ناضجةً، تَسْتَقي من كنوزِ التجارُبِ لآلئَ تُكْمِلُ بها نَظْمَ عُقْدِ المِسيرةِ الجِهادِيَّةِ النَّاضِجةِ التي بدأها نبيُّنا -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- وصحبِهِ الكِرام؛ فمسيرَتُنا ليست وليدَةَ اليومِ واللَّيلةِ، ولكِنَّها وليدّةُ صُبحٍ أغرٍّ هو صبيحةِ يومِ بدرٍ، وهي صبيحةٌ ما ضيةٌ إلى يومِ القيامة.

الجهادُ صناعةٌ الحياة

---

[1] رواه مسلم برقم 2998

[2] النابغة الجعدي

[3] القرطبي 330/3

إنَّ الجهادَ في سبيل الله تعالى صناعةٌ للحياةِ الصحيحةِ الكريمةِ العزيزةِ، يأخذُ فيها المجاهِدُ (بندقيتَهُ) ليضعها حيثُ:

- يُصلحُ لا حيث يُفسِد.
- وحيثُ يَنفَعُ لا حيثُ يَضُر.
- وحيثُ يَكْسَب لا حيثُ يَخْسر.
- وحيثُ يَبْني لا حيثُ يهدِم.
- وحيثُ يُنْجِز لا حيثُ يَتَمنَّى.

لذلك (يُقال لِمَنْ يُحْسِنُ دَقائق الصِّناعات ويُتْقِنُها حَكِيمٌ[1])

الجهاد صِناعةٌ مادتُها الأساسيةُ البشر، ومواردِها البشر، ووقودُها البشر، ومُستهلكوها البَشر، والمجاهِدُ الحكيم هو من يَعرِفُ كيف يَجعلُ من النّارِ والحديدِ، والبارودِ والرصاصِ، والصواريخِ والطَّائراتِ أبوابَ رحمةٍ لهؤلاء البشر، لا أبواب شقاءٍ وعذابٍ وآلام؛ وذلك حين يرفعُ الظُلم، ويقتلِعُ البغي، ويُمهّدُ للعدلِ الذي جاء به هذا الدين، ولن يكون ذلك إلاَّ بالحِكمةِ ووضعِ الأشياءِ في مكانها الصحيح، وزمانِها الصحيحِ، واستخدامها الصحيح.

تأجيل المعارك الجانبيّة..

لم يكُن النبيُّ – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– مشغولاً بالمعارك الجانبيّة التي يفتعِلها البعضُ هنا وهناك؛ وذلك لِحكمةٍ يراها ومصلحةٍ يتوقعها مما دفعهُ إلى تأجيلها، كما لم يكُن عليه الصلاةُ والسلام مُستعجِلاً في إصدار الأحكامِ ضدَّ خُصومِهِ ممن طعنوا فيه وفي عدلِهِ وحُكمِهِ وعِرضِهِ، مع أنّها أمورٌ جزاؤها القتل، وما

[1] تاج العروس31/ 521

ذاك إلاَّ لحكمتِه عليه الصلاةُ والسلام وتقديرِه الصائِب لنتائجِ الأمور، دونَ النظَرِ إلى الضُغوطِ القريبةِ والبعيدةِ، ودون الالتفاتِ إلى الأحاسيسِ والعواطِفِ الصادِقةِ المتألِّمةِ، غير أنَّها مُستعجِلة وغير ناضِجةٍ نضوجَ القائدِ الحكيمِ المتمرّس.

- "لإن رَجعْنا إلى المدينةِ لَيُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذل"[1]
- "أنَّك تنهى عنِ الغيِّ وتسْتخلي به"[2]
- "والله إنَّ هذه الْقِسْمَةَ ما عُدِلَ فيها وما أُرِيدَ بها وَجْهُ الله"[3]
- "يَا رَسُولَ الله أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ"[4]

ماذا لو قيلت هذه الكلمات اليوم في حقّ قائدٍ أو فردٍ؟! ماذا لو حرَّشتْهُ بِطانتُه وأوحت إليهِ أنَّهُ المقصودُ فيها؟! أليس الغالبُ أن يكون الردُّ طيشاً؟! والتصرُّف انفعالاً؟! والنتيجةُ مظهراً من مظاهر الغضب للنفس؟! ومن ثَمَّ إلغاء كل الاعتبارات التي من أجلها خرج ومن أجلها جاهد وعليها عاهد أن يكون جهاده لله، وأن يتحمَّل في سبيلِهِ ما يلقاه، وأن لا يغضب إلاَّ لله؟! ثُم نسيَ أو تناسى (أنَّ الحِكْمَةُ بمعنى (الحِلْم) وهو ضَبْطُ النَّفْسِ والطَّبْعِ عن هَيَجَانِ الغَضَبِ[5])!!

هذا الطريق فأين السالك

ولكن الرؤوسَ التي خرجت من جُحورِها تنضَحُ نِفاقاً وتمتلؤُ حِقداً، تنفُثُ العباراتِ الجارحةِ المؤلمةِ في حقّ أكرمِ الناسِ، وأعدلِ الناسِ، وأبرِّ الناس ما كانت لتجِدَ إلاَّ الحكمةَ في التعامل، والحرصَ على نتائج الحاضر والمستقبل وتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

---

[1] القائل رأس النفاق بن أبي

[2] زاد المعاد3/ 411

[3] عن عبد اللَّهِ رضي الله عنه قال لَمَّا كان يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ النبي أُنَاسًا في الْقِسْمَةِ فَأَعْطَى الْأَقْرَعَ بن حَابِسٍ مِائَةً من الْإِبِلِ وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذلك وَأَعْطَى أُنَاسًا من أَشْرَافِ الْعَرَبِ فَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ في الْقِسْمَةِ قال رَجُلٌ والله إِنَّ هذه الْقِسْمَةَ ما عُدِلَ فيها وما أُرِيدَ بها وَجْهُ اللَّهِ فقلت والله لَأُخْبِرَنَّ النبي فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ فقال فَمَنْ يَعْدِلُ إذا لم يَعْدِلْ الله وَرَسُولُهُ رَحِمَ الله مُوسَى قد أُوذِيَ بِأَكْثَرَ من هذا فَصَبَرَ(رواه البخاري)

[4] زاد المعاد3/411 قصة الزبير رضي الله عنه وخصمه

[5] تاج العروس31/513

وهذا ما أوضحه ابن القيم رحمه الله حين يقول:(وقد كان في تركِ قتلِ من ذكرتُم وغيرهِم (يعني ممن تعرضوا بالطعن في النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ–) مصالح عظيمة في حياته زالت بعد موته؛ من تأليف الناس وعدم تنفيرهم عنه، فإنه لو بلغهُم أنَّه يقتلُ أصحابَه لنفروا، وقد أشارَ إلى هذا بعينِه وقال لعمر لَمَّا أشار عليه بقتلِ عبد الله بن أُبَيَ: "لا يبلغ الناس أن محمداً يقتُلُ أصحابه")

ويقول رحمه الله:(ولا ريب أن مصلحة هذا التأليف وجمع القلوب عليه كانت أعظم عنده وأحب إليه من المصلحة الحاصلة بقتلِ من سبه وآذاه)[1] (وأيضا فإنه كان يعفو عن حقه لمصلحة التأليف وجمع الكلمة ولئلاَّ ينفر الناس عنه ولئلا يتحدثوا أنه يقتل أصحابه وكل هذا يختص بحياته – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ–[2])

حكمةُ التعامل مع الأفراد

لما أعْطى رسول الله ما أعطى من تِلكَ العطايا في قريشٍ وفي قبائل العربِ، ولم يكن في الأنصار منها شيءٌ، وجد حيٌ من الأنصار في نفوسهم شيئاً حتى كثُرتْ فيهم القَالَةُ حتى قال قائِلُهم: لقي والله رسولُ الله قومه.

فأتاهم رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثُمَّ ذكَّرهُم بفضلِ الله عليهم فقال:"ألم آتكم ضلاَّلا فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل" ولم ينْسَ – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– أن يَذكُر فضلهُم عليهِ وعلى الإسلام بعد فضلِ الله تعالى فقال:"أما والله لو شئتم لقُلْتُم فَلَصَدَقْتُم ولَصُدِّقْتُم: أتيتنا مُكُذَّباً فصدَّقناك ومخذولاً فنصرناك وطريداً فآويناك وعائِلاً فآسيناك". ثمَّ جاء الكلامُ الفاصلُ والحاسِمُ في الدُنيا ومتاعِها فقال:

" أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسِكم في لعاعةٍ من الدنيا تألَّفتُ بها قوماً ليُسلِموا ووكَلْتُكُم إلى إسلامكم؟" ثمَّ جلَّى عليه الصلاةُ والسلامُ النتيجةُ التي لا بدَّ أن تكون حاضِرةً دائماً في ذهنِكَ أيُّها الفارس! وهي أن الأصلَّ أنْ تذهب بالأجرِ والفضلِ، لا بالمغنَمِ والعطاء– مع أنَّه من حقِّك– فقال:

"ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشَّاءِ والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟! فوالذي نفسُ محمدٍ بيده لَمَا تنقلِبونَ به خيرٌ مما يَنقلبون به، ولولا الهجرةُ لكنتُ امرءاً من الأنصار، ولو سَلَكَ

[1] زاد المعاد3/441 انظر رأي ابن القيم رحمه الله في هذا الموضوع كاملاً في نفس الصفحة
[2] زاد المعاد5/61

الناس شِعباً ووادياً وسَلَكَتِ الأنصار شعباً ووادياً لسلكتُ شعب الأنصار ووايها. الأنصارُ شِعار والناس دِثار اللَّهم ارحمِ الأنصار وأبناءِ الأنصار وأبناءِ أبناء الأنصار. فبكى القوم حتى أَخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله– صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– قسماً وحظا ثم انصرف رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– وتفرقوا[1]

إنَّ هذه الحكمة في التعامل الراقي مع الأفراد في مثل هذه المواقف الحرجة والظروف الحسَّاسة، هو الكفيل بوحدة الصف ولحمته والمحافظة على كيانه، كما أن الاستبداد والتسلُّط بالرأي وتكميمَ الأفواه وعدمَ الإلتفات إلى النُّفوس المجروحةِ خاصةً إذا كانت من أهل السبق والبلاء والجهد والعطاء؛ لكفيلٌ بالفرقة والانشقاق، وخلق النِّزاعات التي يكون من بعدها الضَّعف ثم الهزيمة ثم الانتكاسة.

حكمةُ القائدِ وقَدْرُ الفرد

ليس حُكماً على شخْصِك وقدْرِكَ أن تنالَ أو لا تَنالَ من لُعاعةِ الدُنيا وفُتاتِها؛ وإنَّما الحُكْمُ كُلَّ الحُكم هو فيما عرفناهُ من جِهادِكَ وبذْلِكَ وعطائِك.

وما أروع هذه الكلمات التي قالها الغزالي (رحمه الله) وهو يتحدَّث عن الأنصار يذكُر فضلهم وقَدْرَهم؛ ليُذَكِّركَّ بفضلِك وقدرك أيُها المجاهدُ الحرُ؛ حتى لو لم تَنَل مِن مَغْنَمِ الدُنيا ما نالَهُ غيرُك. فما يدريك لعلَّ أميرُك أوكَلَكَ لدينِك وجهادك وشهامتك وعزت نفسك، وأراد بك ما أراد الله لك؟

يقول:(والأنصار في تاريخ الدَّعواتِ مثلٌ فريدٌ للرِّجالِ الذين تقومُ بهم الرِّسالاتُ العُظمى؛ حتى إذا استوتْ على سُوقِها، وتجاوزت أيامَ مِحنتِها ومؤنتها، وتدَّلت ثمارها وحلا جَناها، جاءت أيدٍ غير أيديهِم، فقطفتْ ما تشْتهي، ولم تكْتفِ بذلك! بل لطمتْ أيدِي الغارِسيين حتَّى لا تلقُطَ من الثِمار السَّاقطةِ قليلاً ولا كثيراً!!

ولا نقولُ هذا الكلامِ تعليقاً على توزيعِ الغنائمِ في هذا المقامِ، فقد اتَّضح وجهُ الرُشْدِ في هذهِ القِسْمةِ الحصيفةِ، ولكِنَّنا نُذكِّرُ في مناقِبِ الأنصارِ، وافتراضِ ترفُّعِهم عن الدُنيا في سبيلِ الدِّين، وتأليفِ النَّاسِ

---

[1] زاد المعاد3/ 474

عليه، أنَّ شؤون الحُكْمِ ابتعدتْ عنهم، واحتازها غيرُهم وهم لها أكِفَّاء، فلم تمضِ ثلاثون سنَةً حتى كان في أيدي الطُّلقاء.

ولا ريبةَ في أنَّ أولئكَ المتجردينَ للهِ سوفَ يلقونَ جزاءهم الأوفى، وأنَّ شأن الدنيا أنزلُ قدراً من أن يأسى عليهِ رجُلُ العقيدة.)[1]

الحكمة في التعاطي بين الأفضلِ والمفضول

يا عائشة":لولا أنَّ قومَكِ حديثوا عهدٍ بجاهلية لَنقَضْتُ الكعبةَ وجعلتُ لها بَا بَيْن"[2]

فهذا كما يقول ابن القيم – رحمه الله– (انتقال عن الأفضل إلى المفضول لما فيه من الموافقة وتأليف القلوب، فهذا ترك ما هو الأولى لأجل الموافقة والتأليف فصار هذا هو الأولى في هذه الحال)[3]

فكم هي الأمورُ التي نُريدُ نَقْضُها ولا بُدَّ أن تُنْقَض في واقِعِ الحياةِ، ولكِنَّ الوقتَ والظرفَ يُحتِّمانِ علينا تطبيقَ قاعدةِ(الحكمة في التَّعاطي بين الأفضلِ والمفضول)؟! وكم هي المظاهِرُ التي نحتاجُ إلى نقضِها في واقِعِ المجتمعاتِ ولكِنَّ قيَمَ هذه المجتمعاتِ وأعرافها وتقاليدها تُحتِمُ علينا التعامُل وفق تلك الحكمةِ النبويةِ؟!.

وما يُطْلَبُ بالاستعجال يُنالُ بالتأنِيّ!! والْمُنْبَتُّ (أي الُمجِدُّ في السير) لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبْقى

هكذا هي الحكمةُ تجاربُ تُستقى من خبر الأولين؛ فتكون بصائر نورٍ تهديك إلى الحقِّ، وتهبك الاتزان، وترسُم لك الطَّريق.

إنَها الحِكمةُ ضالتُنا أنَّا وجدناها فنحنُ أحقُّ بها

الوصية الحادية عشر

---

[1] فقه السيرة 396

[2] رواه البخاري برقم 126

[3] زاد المعاد2/ 143

بالحلمِ نسود

"وَصِيَّةً مِنَ اللهِ واللهِ عَلِيْمٌ حَلِيْمٌ"[1]

"إنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ"..[2] قالها رسولُ الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- لأشج عبد القيس.

الجهاد: بذلُ الإنسان جُهده وطاقته ابتغاء مرضات الله تعالى، ولا شكَّ أن هذا الحِراك والجُهد والبذل – سواء كان باليدِ أو اللِّسانِ أو النَّفسِ- يحتاج إلى ضَبْطِ النَّفْسِ والطَّبْعِ عن هَيَجَانِ الغَضَبِ ف"إنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إلا زَانَهُ ولا يُنْزَعُ من شَيْءٍ إلا شَانَهُ"[3] وهو حقيقةُ الحِلم الذي نطلُبه.

الحِلم الذي يقود مسيرتَنا بهدوء.. ويعبُرُ بها خضمَّ المصاعب والعوائقِ والمحنِ بهدوء.. ويصلُ بها إلى برِّ النَّصر والنجاح والتمكينِ بهدوء!!

هدوءُ الواثِقِ بالنَّصرِ رغم حالة الهزيمة .. المتيقِن من النَّجاح رغم حالة الفشل .. المطمئنّ للتمكينِ رغم الطردِ والتشريد!!.

متناقِضاتٌ صعبةٌ، ومفارقاتٌ بعيدةٌ؛ ولكنَّها الطَّبيعةُ الملازمة للحِلمُ والتي تجلِبُ الصبر والثقة والاطمِئنان.

ثقةُ الحليم

انظر معي سفيهاً من سفهاء قريش يعترضُ نبيَّك – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- فينثُر على رأسه تراباً !!

(..فدخل رسول الله بيتَه والتراب على رأسه، فقامت اليه إحدى بناته تغسلُه وتبكي، ورسول الله يقول:" لا تبكي يا بنية فان الله مانع أباك").[4]

لا والله! لا يقولُ هذه الكلمة إلاَّ نبيٌّ حوى الحِلم قبل أن يحتويه، واستوعبتهُ نفسُه وروحُهُ وأخلاقه، وكأنَّ الحِلم خُلِق رجُلاً هو محمدٌ – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- !!لم يكُن مثلُه – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- في الحِلم،

---

[1] البقرة 263
[2] رواه مسلم برقم 17
[3] رواه مسلم برقم 2594
[4] البداية والنهاية3/122

والثبات، والصبر، واستقرار النَّفسِ واطمئنانها رغم زلازل الدُنيا التي كانت تهزُّ الأرضَ من تحتِ قدميه!! فهو قد خُلِقَ كذلك ليغلِب الأحداث، ويَنتصرَ على الحوادِث بكُلِّ صمتٍ وهدوء، وهكذا ساد عليه الصلاة والسلام.

أَلم تَرَ أَنَّ الحِلْمَ زَيْنٌ مُسَوِّدٌ   لِصاحِبِهِ والْجَهْلُ للمَرْءِ شائِنُ[1]

من اعتلا السنام لا يتراشق بالكلام

(إنَّ النَّصر في معركةِ الحياةِ لا يأتي بالمالِ والثراءِ والمتاع؛ ولكن من المعاناةِ والشِدةِ والصبر)[2]، والمجاهدُ في معركته مع الباطِل بحاجةٍ إلى الصَّمتِ وإن كانَ مُراً، والتغابي وإن كان صعباً..

لَيْسَ الغَبِيُّ بِسَيِدٍ في قَوْمِهِ   لكنَّ سيِّد قومِهِ المُتغابي[3]

دخل رَهْطٌ من الْيَهُودِ على رسول الله فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ قالت عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا فقلت: وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ قالت: فقال رسول الله مَهْلاً يا عَائِشَةُ إِنَّ الله يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأمرِ كُلِّهِ. فقلت: يا رَسُولَ أو لم تَسْمَعْ ما قالوا قال: رسول اللهِ قد قلت وَعَلَيْكُمْ"[4].

إنَّ النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- يُريدُ تعليمنا أنَّ النُّزول إلى مستوى السُّفهاءِ ومجاراتهم بما يقولون وما يفعلون، ليس من أخلاقِنا وليس من مهمتِنا التي جئنا من أجلها في شيء. ونحنُ نُريدُ أن نهمِس في أُذن المجاهِد: أن ليس لنا وقتاً كافياً للالتفاتِ إلى هذه التَّفاهاتِ أو الوقوفِ عند تلك السَّذاجات فالله يتولى الصَّالحين.

(لما نادى أبو سفيان المسلمين في معركةِ أحد بأعلى صوتِه: هل فيكم محمد؟ هل فيكم أبوبكر؟ هل فيكم عمر؟ لم يُجِبه أحد، مع أن الجوابَ كان أبعثُ للغيظ في قلبِ أبي سفيان من السكوت، ولكن الموقِف كان يستلزم السكوت.

---

[1] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء
[2] وحي القلم 444
[3] أبوتمام
[4] رواه البخاري برقم 5678

فإذا حصل هذا في سوح القتال فحصوله في الحياة اليومية أولى)[1]

ولربَّما ضحِك الحليمُ من الأذى وفـؤادُه من حَرّه يتأوَّهُ
ولربما شَكَلَ الحليمُ لسانَه حَذَرَ الجواب وإنه لَمُفَوَّهُ[2]

مع الانتباهِ إلى أنَّ من الأمور ما لا ينبغي السُّكوتُ عليه، والردُّ فيها أولى فعندما أخذ أبو سفيان يرتجِزُ: أُعْلُ هُبَلْ. أُعل هُبَل، قال النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– : ألا تجيبونهَ؟ قالوا ما نقول يا رسول الله؟ قال قولوا: الله أعلى وأجلّ. قال: إن لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم. فقال النبيُّ – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ–:ألا تجيبونَه؟ قالوا:ما نقولُ يا رسولَ الله قال: قولوا: اللهُ مَولانا ولا مَولى لكم"[3]

قال الأحنف: ما نازعني أحدٌ قطُّ إلا أخذتُ أمري بإحدى ثلاث: إن كان فوقي عرفتُ قدره، وإن كان دوني أكرمتُ نفسي عنه، وإن كان مثلي تفضَّلت عليه)[4]

القائدُ الحليم

أنَّ مسيرتنا بحاجةٍ إلى قائدٍ قويٍ حازم حاسم، وهي صفاتٌ لا تتنافى مع الحِلم ولا تتعارض معه، ولكن كم هي الهُوَّة والشُّقةُ بين قائدٍ متصلبٍ عنيفٍ فظٍ غليظ وبين الحِلم؟!

وكم يُجانِبنا الصَّوابُ ويُحالفنا الفشلُ والخطأ عندما نغضُّ الطرف مُتعمدين أو شِبه متعمدين عن تفحُّص جوانب شخصيَّة قائدِ الأمةِ ثم نرى مدى التزامِ قياداتنا بها!! إذ كيف يُمكِن تلمُّس طريق النَّصر للأمة عند تَنَكُّبِ صفات وجوانب شخصيَّة من صنع النَّصر للأمة؟!

"عن أَنَسِ بن مَالِكٍ قال كنت أَمْشِي مع رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً حتى نَظَرْتُ إلى صَفْحَةِ عَاتِقِ رسول الله –صلَّى اللهُ عَلَيْهِ

[1] العوائق 201
[2] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء
[3] رواه البخاري برقم 2972
[4] الآداب الشرعية2/ 207

وسَلَّمَ- قد أَثَّرَتْ بها حَاشِيَةُ الْبُرْدِ من شِدَّةِ جَبْذَتِهِ ثُمَّ قال: يا محمد مُرْ لي من مَالِ الله الذي عِنْدَكَ فَالْتَفَتَ إليه رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- ثُمَّ ضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ له بِعَطَاءٍ". [1]

وهذا ما سار عليه وفقهه القادةُ من أصحابِه من بعدِه حين كانوا يُقوِّمُون ويُؤمرون بالعدل والقسط ممن استشعروا مسئولية النُّصح لله ولرسولِه ولكتابهِ ولأئمة المسلمينَ وعامتهم..

(خَطَبَ معاويةُ بن أبي سفيان الناس وقد حبسَ العطاءَ شهرين أو ثلاثة، فقال له أبو مسلم الخولاني: يا معاوية إنَّ هذا المال ليس بمالك ولا مالِ أبيك ولا مال أُمك، فأشار معاوية إلى الناس أن امكثوا ونزل فاغتسل ثم رجع فقالَ: أيها الناس إن أبا مسلمٍ ذَكَر أنَّ هذا المال ليس بمالي ولا بمال أبي ولا أمي، وصدق أبو مسلم. إني سمعت رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- يقول: الغضبُ من الشيطان، والشيطان من النار، والماء يطفىء النار فإذا غضب أحدكم فليغتسل، أغدوا على عطاياكم على بركة الله عز وجل) [2]

(وأهل الجاهلية لم يكونوا يسودون رجلاً حتى يكون حليماً، وإن كان شجاعاً سخيا) [3]

روعةُ الحِلمِ بين الأفراد

تَحَبَّبْ إِلَى الإِخْوَانِ بالحِلمِ تغْتَنِم   مَوَدَّتَهُمْ فَالْحِلْمُ لِلشَّرِّ يَدحَضُ [4]

إنَّه رصيدُنا فلا تحرِقوهُ باللهِ عليكم بتحريشِ شيطان، أو نفثِ حاقد، أو دسيسةِ مُفسِد وليكُن شعارُنا بيننا "صِلْ من قَطَعَكَ وَأَعْطِ من حَرَمَكَ واعفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ" [5]

أليسَ الحِلمُ الدَّافِعُ إلى ا لتَّغافر والتَّسامح بين الإخوانِ أبردُ للقلبِ؟! وأطهرُ للنَّفس؟! وأدفعُ للشيطانِ؟!

أليس الحليمُ الذي سلِم صدرُه على إخوانهِ أقربُ للشَّهادةِ ممن يُضمِر الحقد والحسد والبغضاء لهم ؟!

---

[1] رواه البخاري برقم 5472

[2] حلية الأولياء2/ 130

[3] الحلم1/ 66

[4] محمود سامي البارودي

[5] رواه أحمد برقم 17488 وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن

ألسنا في طريقٍ ندَّعي أنَّنا نتسابق فيه إلى الموت لنصنَع الحياة؟! فما الذي شغلنا إذاً؟! وما الذي أخرجهُ من قلوبنا بعد أن خرجنا من أجلِه؟!

ألا يُحبُّ أحدنا أن يكون كأبي ضمضم؟! "كان إذا أصبح قال: اللَّهم إني قد تصدقتُ بعرضي على من شتمني؛ فأوجب النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- أنه قد غُفِر له"[1]

وهل إخواننا إلاَّ أحد اثنين أكبر مِنا أو أصغر:

(فإذا رأيت من هو أكبرُ منك فقل: هذا سبقني بالإيمان والعملِ الصالح فهو خير مني!! وإذا رأيت من هو أصغرُ منك فقل سبقتُه إلى الذنوب والمعاصي فهو خير مني!! فإنك لا ترى أحداً إلا أكبر منك أو أصغر منك)[2].. وبالتالي ترى أنَّك تحمِلُ نفسيَّة الحليم الصافح الغافر لإخوانه فتكون من أهل الفضل الذين إذا ظُلِموا صبروا، وإذا أُسيء إليهم عفوا وإذا جُهِل عليهم حلِموا

من اليومِ تعارفنا ونطوي ما جرى مِنَّا
ولا كانَ ولا صار ولا قُلتُم ولا قُلنا
وإن كان ولا بدٌ من العُتبِ فبالحسنى[3]

حلماء أقوياء

ولا يظنُّ أحدٌ أنَّ دعوة الحِلم هذه أفرزها ضعفٌ أو خوف!! بل لِيُعْلَمَ أنَّ ما رسَّخها هو مَكْرُمَةُ(اذهبوا فأنتم الطُّلقاء) نقولُها حين نَقْدُر.. ونقولُها حين نتمكَّن.. ونقولُها حين نعلوا.. ونقولُها حين نُجرَّب!!

إنّها لغةُ من ظُلِم فحلِم ثم قدَر فعفا، لا من ظُلم فحلِم حتى إذا قدر انتقم!! إنَّها لغة القويِّ الحليم..

[1] أصل الحديث عند ابي داوود برقم 4886 وقال الشيخ الألباني رحمه الله: صحيح مقطوع

[2] مدارة الناس1/ 53

[3] ديوان بهاء الدين زهير

وَلِي فَرَسٌ لِلحِلم بالحِلم مُلْجَمٌ   وَلِي فَرَسٌ للجهْل بالجهل مُسْرَجُ
وما كُنْتُ أرضى الجهلَ خِدْناً ولا أخاً   ولكنّني أرضى بـه حِيْنَ أُحْوَجُ[1]

هذا ما نُريدُ أن نتربى عليه، وهذا مانُريدُ أن يفهمه الآخرون (إنَّ من أحسنِ خصال المرءِ الجودُ من غير امتنان ولا طلبِ ثواب، والحِلمُ من غير ضَعْفٍ ولا مهانة)[2]

وفي الحلمِ ضعفٌ والعقوبة هيبةٌ   إذا كنت تخشى كَيْدَ مَنْ عنه تَصْفَحُ[3]

قالها الفاروق وليَسْمَعْها من غرَّته نفسُه بنا:(من خاف الله لم يشْفِ غيظه، ومن اتقاهُ لم يَصنع ما يُريد، ولولا يوم القيامةِ لكان غير ماترون)[4].

الوصية الثانية عشر

حدّد ولاءك

"إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَواةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ"[5]

أيها الفارس:

إن موضوع العقيدةِ موضوعٌ مهم يجبُ التركيزُ فيه على الأصولِ والكليات، بعيداً عن التفصيلاتِ والجزئيات -التي ربَّما يموت الإنسان ولم يتعرَّض لها-!!، ويجبُ التركيزُ فيها أيضاً على الثوابت بعيداً عن الفلسفاتِ وعلم الكلام، وما أحوجنا كمجاهدين وجماعاتٍ جهاديةٍ إلى دراسة العقيدة وفق ذلك المفهوم

---

[1] ديوان محمد بن حازم الباهلي

[2] روضة العقلاء1/ 237

[3] محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء لأبي الفرج الأصفهاني

[4] رسالة المسترشدين 50

[5] المائدة 55

الذي تلقاهُ الجيل الأول، ومن المعلِّم الأول - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- وحديثي معك عن قضية الولاء، والتي هي أصلٌ من أصول الدين، وركنٌ من أركان الاعتقاد، ولا شكَّ أنها سَنام العلاقات بين البشر.

قضيةٌ ظهرت ظُهور القمر ثم مُحقت محاقه، وهي اليوم في أحلك لياليها وأشدِّها، قضيةٌ تغافل عنها المسلمون وأهملوها، وتميَّعوا فيها حتى أصبحت - بعد أن كانت جسداً ضخماً لا يقوى أحدٌ على النَّيلِ منه، أو الاقتراب من مسلَّماته- هزيلة كأنها رسمٌ مخطط لكِيانٍ بدأه المصوِّر ثم أغفلَه إذ لم يُعجِبه!![1]

إنَّه الولاء ومنحُه وصرفُه والتعاطي معه، فلا بد أن نُحدد لمن نمنحُ ولاءنا، ولمن نصرِف ولاءنا، وعمَّن نُحجِب ولاءنا.

"إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ.." هكذا بكل وضوحٍ وتحديدٍ وتأكيدٍ .. هكذا على وجه الحصر والقصر، فلا ولاءَ إلاَّ لرايةٍ واحدةٍ هي راية الإسلام، ولا مُناصرة إلاَّ لجماعةٍ واحدةٍ هي جماعةُ المسلمين، ولا حبَّ إلاَّ لفردٍ واحدٍ وهو الفرد المؤمن.

ولاءٌ لا يتلوَّن

إن الولاء يعني الحب والنُّصرة "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ"[2] فليس في الولاء ألوان نلبسُ ونتخيَّر منها ما يُعجبنا ويروق لنا، وننزع ما لا يعجبنا!! كما أنَّ الولاء ليس فيه غبش، وليس فيه غموض، كما أنَّه لا يعرفُ لغة اللَّحن؛ فالقضية قضيَّة مفاصلةٍ بين الصَّفِ المسلمِ وسائر الصفوف، وبين الجماعةِ المسلمة وسائر الجماعات.

إنَّه الولاء لرايةٍ واحدة هي راية الإسلام .. فمن تبناه تبنيناه، ومن نبذه نبذناه .. من وصله وصلناه، ومن قطعه قطعناه.. من سالمه سالمناه، ومن حاربه حاربناه "ياأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ "[3]

---

[1] بعض المفردات مقتبسة من وحي القلم للرافعي
[2] التوبة 71
[3] الممتحنه 1

إنَّه الولاء لجماعةٍ واحدة هي جماعة المسلمين فالحبُ لها والبُغضُ لغيرها، قال رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– :"وَالْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ من الإِيمَانِ"[1] هكذا تلقَّى الجيل الأول هذه القضية العقدية المهمة، وهكذا عاشوها، وهكذا تحركوا بها ولها.

- " يارسول الله إنَّ لي موالي من يهود كثيرٌ سلاحهم، قويةٌ أنفُسهم، شديدة شوكتهم، وإني أبرؤ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله والمؤمنين" هذا ما نطق به لسان الولاءِ عند عبادة بن الصامت –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– أما لسان النِّفاق عند ابن سلولٌ فنطق خيانةً ونفاقاً حيث قال:"إني رجلٌ أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية موالي(يعني اليهود)[2].

لقد قرر عبادة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – أن ليس من الحريةِ في شيء أن يقسِّم المرؤ ولاءاته، أو أن يتخيَّر في نُصرته، أو أن يُشتِّت حبه ومناصرته " وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ والنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ "[3] وهكذا حسم الله تعالى الأمر وقطع دابر المزايدات حين كذَّب إيمان من لم يوالِ المسلمين، وأعطى حبَّه وولاءه للكافرين.

ولاءُ الطَّريق

تلك كانت قضية الولاء العقدي. وقضيةٌ ولاءٍ آخر لابدَّ من التطرقُ إليه فهو لا يقلُّ أهميةً عن سابقه، فهذا الطريق لا بدَّ فيه من ولاءٍ من نوع آخر وهو الولاء لرايةِ الجهاد بغضِّ النظر عمن يحملها؛ مادام مؤمناً بالله تعالى أميناً عليها مؤدياً ما عليهِ من حقٍ لها، فما دامت الرايةُ واضحةُ الهدف والمِسْلَكِ والطَّريق فالولاء لها ضروري، والعمل تحتها محتَّم، ونصرتها من أوجب الواجبات.

أمَّا أن يكون الجهاد منضوياً تحت راياتٍ متعددةٍ وولاءات مختلفةٍ– وإن كانت صالحة– فهذا نوع من تشتيت الجهود، وتبديد الطَّاقات ربَّما وصل إلى حدِّ التَّحريم حين يؤدي إلى الضعفِ والتفرقةِ بين صفوف المجاهدين، [**ولستُ هنا أدعوا إلى أن يكون الجميع تحت جماعةٍ واحدة وإنما أدعوا إلى أن يكون الجميع تحت قيادةٍ واحدة**].

---

[1] رواه البخاري في كتاب الإيمان– باب الإيمان وبني الإسلام على خمس.

[2] تفسير ابن كثير2/ 70

[3] المائدة 81

لا بدَّ أن نؤمن بضرورة الوحدةِ وأهميتها، وضرورة التنسيقِ وفعاليته، كما لا بدَّ أن نؤمن بأن الجهاد **(مشروع أمة)** لا مشروع فردٍ أو أفراد، أو جماعةٍ أو جماعات فالكل في أطار الأمة جزء، والأجزاءُ عندما تخرج عن إطار الدائرةِ تتبعثرُ ثم تضيع، والدائرة هنا الأمة والأجزاء هنا الجماعات الجهادية الصادقة.

سيفٌ لا يستوعبه غمد

إنَّ الجهاد لا تَسْتَوعِبُهُ جماعةٌ، فهو أضخمُ وأكبرُ من أن يبقى أسيراً تُحرِّكه ظروفُ الجماعةِ وأمكانياتُها، وتتحكَّم فيهِ تصورات قادتها وقُدرات أفرادها، فينشطُ حين تنشط، ويخبوا حين تفتُر، أو أن يبقى رهن حدود الجغرافيا التي تعيشُ على أرضها هذه الجماعة أو تلك، أو حدود التَّاريخ الذي تنتمي إليه هذه الجماعةِ أو تلك، أو أن يبقى ضمن ألوان الخارطة السياسية التي تتخذه غرضاً ومصلحةً تُحقق من خلاله ما يضمن لها مكسباً هنا أو هناك لا يتناسبُ بحالٍ مع ضخامة التكاليف والأعباء، ولا حجم المعاناة والعنت، ولا مقدار العرقِ والدم!!.

لا بدَّ إذاً من قيادةٍ مركزيَّةٍ تتفق عليها تلك الجماعات وليكُن اختيارها وفق الآليةِ التي يتمُّ الاجتماع عليها، ثم تُحاطُ تلك القيادة بمجلسٍ من أهل الشريعةِ والسياسةِ والفكر والاقتصاد يُثري خططها ويوجِّه خطواتها، ويصوِّب أعمالها بحيثُ تكون التَّحركات مبنية على أساسٍ سليم، لتأتي النتائج بعد ذلك في صالح الإسلام والمسلمين، وهذا فرضٌ لا بدَّ من القيامِ به حيث أرى أن التجربة الجهادية قد تخطَّت مرحلة الحماس إلى مرحلة النُّضوج، ولا بدَّ لها بعد هذا من دخول مرحلةٍ جديدةٍ تقف الآن على أبوابها وهي مرحلة الرُّسوخ وجني الثِّمار.

ضبابٌ يحجب الرؤيا

عندما يغيبُ الوعي الفكري لمفهوم الجهاد، وتختَّلُ موازين المصالح والمفاسد، ويعلو الضبابُ سلَّم الأولويات؛ يقعُ الخلل وتُحرف البوْصلة وينحرفُ المسار وتكونُ الهزيمة. الهزيمةُ بنوعيها الماديِّ والمعنوي، فالمادي بالخسائر، والمعنوي بتركِ الطريق!!

فلا بدَّ إذاً من وضوح الرؤيا، ووضوح الهدف، وتحديد طريقة العمل والمسير دون أن نكون أسرى توجيهاتٍ إعلامية، أو هتافاتٍ جماهيرية، أو معادلاتٍ سياسية، وإنما يجب أن نكون نحن من يوجّه الإعلام، ويُصيغ الهتافات، ويرسُم السياسة.

ثم لا بدَّ للمسيرةِ من قيادةٍ ذات أهليَّةٍ وعلم ورسوخ في هذا المجال؛ إذ لا يُمكن أن يُبصر النور أعمى، أو أن يفهم الأمر جاهل، أو يدُلُّ على الطريق غريب. **(فنحنُ بحاجةٍ إلى أُجَراء لا أُمراء)** هذا ما فهمه أبو مسلم الخولاني رحمه الله حين سلَّم على معاوية – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – بالإجارة لا بالإمارة (فقال: السلام عليك أيها الأجيرُ فقالوا: قل السلام عليك أيها الأميرُ فقال: السلام عليك أيها الأجيرُ فقالوا قل أيها الأمير، فقال معاوية دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول)[1]

وهذا ظاهرٌ فلا شكَّ أن الأجير لا يُستخدمُ إلاَّ إذا كان معروفاً عنه إجادة الرعاية والحماية والتَّصريف لما استُأجر له. والجهادُ من أعظم الأبواب التي يجِبُ أن لا يجترأ على التَّصدي لرأسِ المسئولية فيه إلا من عُرف عنه وعرفَ في نفسِه بصدق وتجرُّد أنَّه أجيرٌ بارعٌ مأمون، يعرفُ كيف يقود المسيرة بين حُجب السَّحاب وكثافةِ الضباب.

إذاً: هو ولاءُ العقيدةِ وولاءُ الطَّريق، وجهان لعملةٍ واحدة أصيلة غير مزيَّفة.

الوصية الثالثة عشر

لا تنسى أنك جندي

ذنبٌ في الحق خيرٌ من رأسٍ في الباطل

الجندية منقبةٌ ينالها الجندي في جماعة المجاهدين، حيث أنَّ مَدْلُولهَا أعظمُ من منطوقِها؛ إذ تعني اتباع الحقِّ، والسمع والطَّاعة، والالتزامُ بالأوامرُ، والانضباط بالقوانين، والحرص على تحمُّل المسئوليات المناطة.

ذلك كُلُّه مطلوب مِنك أيها الفارس أياً كان مستواك، وأياً كانت مسئوليتك، وأياً كان موقعك؛ فالجنديةُ تكليفٌ لا تشريف، وكما قال حماد بن أبي سليمان(لأن أكون ذنباً في الحقِ أحبُ إليَّ من أكون رأساً في الباطل)[2]فما دُمت ترومُ الأجر وتتطلَّع إلى الآخرة فما يضيرُكَ أن تكون في القيادةِ أو في السقايةِ أو في

[1] سير أعلام النبلاء4/ 13

[2] سير أعلام النبلاء10/151

الحراسة؟ أليس من بشَّره النبيُّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- بطوبى أو دعى له بطوبى (لا يؤبه له)!! "طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ إن كان فِي الْحِرَاسَةِ كان فِي الْحِرَاسَةِ وَإِنْ كان فِي السَّاقَةِ كان فِي السَّاقَةِ إن اسْتَأْذَنَ لم يُؤْذَنْ له وَإِنْ شَفَعَ لم يُشَفَّعْ"[1]

وهذه نفسيةٌ لا بدَّ أن يحملها كل مجاهدٍ في سبيل الله، ولستُ هنا مبالغاً أو مُطالباً بالمثاليةِ التي يتذَّرع بعدم الوصول إليها كل من لا يريدُ الوصول إلى درجات متقدمة من الكمال الأخلاقي والسلوكي والعملي!! إذ أنَّ هذه النَّفسية -أعني نفسية الجندي- هي بعنوانٍ آخر تعني التَّجرد الذي يجِبُ أن يستحضِره كلَّ عاملٍ في هذا الطريق "وَمَن يَفْعَلْ ذالِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتَ الله فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً"[2]

فالمجاهدُ ليس بطالب دنيا بل طالبُ آخرة، وليس بطالب حكم بل طالب لتمكين حكم الله في الأرض، وهذا يعني أن يُحقق هذه المطالب دون النَّظر إلى ما ينتظِره، أو أن يُخطِّطَ لما ينتظره!!

ثم إنَّ القبولَ والرضى والتواضع وراحة النَّفس بحجم المكان، أو حجم المسئولية، هي التي تدفعُ العامل إلى العمل، وتدفعه إلى الاستمرار، وتدفعه إلى الجدِّ والإخلاص، فالمرؤ بتواضعه وصدقِه لا بمنصِبهِ وكِبره.

له هيبةٌ فيها التَّواضع كامنٌ — وعِزٌ بذيل الكبرياء تلثَّما[3]

متطلبات الجندية:

وللجُندية متطلباتٌ لا بدَّ أن يحققها المجاهد حتى يكون صادقاً في جُنديته وولائه وانتمائه، وهذه المتطلبات لا يُمكن أن يكتب النجاحُ لأي عملٍ بدونها ومنها:

1- السمع والطاعة

إنَّكَ أيها الفارسُ لن تُقدِّر التِّبعةَ التي التزمت بها وخرجت من أجلها حقَّ التقدير، حتى تسمع وتُطيع، ولا شكَّ أن السَّمع والطَّاعة إنما تكون في المعروف، والسمع والطَّاعة من أعلى درجات الجُندية لذلك

[1] رواه البخاري برقم 2729
[2] النساء 114
[3] ديوان الأبيوردي

أمر الله تعالى عباده فقال:" يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأٌ مْرِ مِنْكُمْ "[1] كما أمر بها النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- أمته يوم قال" وأنا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ الله أَمَرَنِي بِهِنَّ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالْجِهَادُ وَالْهِجْرَةُ وَالْجَمَاعَةُ فإنه من فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ من عُنُقِهِ إلا أَنْ يَرْجِعَ"[2]

والسمع والطاعة تعني: امتثال الأوامر وإنفاذها فوراً في العُسرِ واليُسر، والمنشط والمكره، دون النَّظر إلى مقاييس الربح والخسارة، فالجندي قد جنَّد نفسهُ لنصرةِ دينه لا لنُصرةِ نفسه، ولمكاسب دينه لا لمكاسب نفسه.

وكم امتلأ سيفُ الله خالد وهو القائدُ الفذ بمعاني الجُندية وطبَّق عقيدتها بشكلٍ عمليٍ حين جاءه أمر العزلِ من قيادة جيوش الشام، وكان أول أمرٍ رئاسيٍّ يُصدره الفاروق – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – بعد توليه الخلافة، وتكليف أبي عبيدة. جاء الخبر بذلك والمسلمون مواقفون عدوهم باليرموك، فكتم أبو عبيدة الأمر كله حتى انقضى أمر اليرموك، وكان فتحُ دمشق بعدها، فحينئذ أظهر أبو عبيدة إمارته وعزل خالد، فما كان منه–وهو الذي وطَّن نفسه أن يكون في أي موقع يخدم الدِّين–إلا أن يسمعَ ويُطيع !! وعاد جندياً ينصُر دين الله تعالى من موقعٍ آخر، ومن درجةٍ أخرى، ليُحقق ما بايع عليهِ رسول الله–صلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- هو وأصحابه يو م قالوا: "بَايَعْنَا رَسُولَ الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- على السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ في الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ وَأَنْ نَقُومَ أو نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كنا لا نَخَافُ في الله لومه لائِمٍ"[3]

2- الاستئذان

"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَائِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ"[4]

---

[1] النساء 59
[2] رواه الترمذي برقم 4758وصححه الألباني
[3] رواه البخاري برقم 6774
[4] النور 62

إن ما ينتظِرك من أجر الرِّباط لا يقلُّ بحالٍ عمَّا تُريدُه من أجر القتال!! وما ينتظِرك من أجر الطَّاعةِ لا يُقارن بما تُريده -بحسب ظنك- من التَّصرفِ قولاً أو فعلاً بعيداً عن علم القيادة وإذنِها!!

فالعمل الجهادي لا يتحمَّل الاجتهادات الفردية التي تبدُرُ عن حماسةٍ صادقة ولكنَّها غير مدروسة، ومن رغبةٍ مُخلصة ولكنها غير محسوبة، فتلك الحماسة وتلك الرغبة واللَّتان تولدان بهذه الطَّريقة(القيصرية المستعجلة) يكونُ الناتج السلبيُ فيهما مدمراً للعمل، ومربكاً للخطط، وكاشِفاً للسريَّةِ التي يتطلبها العمل.

والاستئذان أصلٌ شرعيٌ يضبِطُ الأقوال والأفعال معاً، إذ أنَّ خُطورة الكلمات التي ينطِقُ بها المرءُ – والتي تتعدَّى التعبير عن صفته الشخصية إلى التعبير عن صفته الجماعية — لا تقِلُّ خطورة عن الأفعال الارتجالية التي يقوم بها المرءُ بعيداً عن إذن القيادة، وفي كُلِّ إصابةٌ مؤلمة توجع خطط العمل ومراحله، وما يُدريك لعلها تقع في مَقتل!!

يقول ابن قدامه رحمه الله في كتابه العمدة:"وإذا دخلوا أرض حربٍ لم يجز لأحدٍ أن يخرُج من العسكرِ لتعلُّفٍ أو احتطابٍ أو غيره، إلاَّ بإذن الأمير" وزادَ " ولا يُبارزُ عِلجاً ولا يُحدثُ حدثاً إلاَّ بإذنه"

إذاً: فليسَ الإذن للعلفِ أوالتَّحطبِ بأولى من الإذن في غيره من التصرفات!! وذلك كله لأن الأمير أعرفُ بحال الناسِ وحال العدو ومكامنهم، ومواضعهم، وقُربهم وبُعدهم، فإذا خرج بغير إذنه لم يأمن أن يُصادف كميناً للعدو فيأخذوه، أو طليعةً لهم، أو يرحل الأمير بالمسلمين ويتركه فيهلك.

فهل تأمن أن تُصادف كميناً من متربصٍ بمسيرة الجهادِ يلتقطُ منكَ كلمةً يغزِلها من خلال قوةِ موقعكَ في المسيرة الجهادية، أو من مُتحفزٍ يستغلُّ منك تصرفاً يعقدُ بهِ عُقَداً يصعُب حلُّها؟!

إنَّ التَّسللَ لواذاً في الكلام أو الفعل من صفات المنافقين والمرجفين وليس له من صفات المجاهدين ناقة ولا جمل.

3- الثبــات

لأن صاحبُ المبدأِ الصادقِ في جنديته، الواثقِ من طريقه، المقتنعِ بفكرته، المؤمنِ بمآله لا بدَّ ماضٍ وإن نَهَكَتْهُ المصائب، وتناولتْهُ من قريب وبعيد، لأنه يَحْمِلُ شُعورَ الرَّجاءِ في الله واليوم الآخر، وهو شعورٌ لا

يُشترى بمال، ولا يُلتمسُ من أحد، ولا يَعْسُرُ على من أراده، ولا يصعبُ على من طلبه بصدقٍ وحاطه بيقين.

ثم إنَّ تحمل المسئولية وإعطاء العهد والميثاق عن قناعةٍ لا حماسة، واعتقادٍ لا اندفاع، وفهمٍ لا جهل؛ هو الركيزة الأساس في الثبات، ومن ثَمَّ التضحية والبذل حتى آخر رمقٍ من روح، وقطرة دم.

فلا بد أن تظلَّ أيها الفارس عاملاً مجاهداً في سبيل غايتك مهما بَعُدَتِ المدة، وتطاولتِ السُنون، وتعاقبت المحن، حتى تلقى الله على ذلك وقد فُزت بإحدى الحسنيين، النصرُ أو الشهادة، فالوقت جزءٌ من العلاج وتعدد المراحلُ أسلوبٌ ناجح للوصول، وأنت ونحنُ على الدَّرب، وهي مسيرةٌ يستلِمُ خلفُها ما مدَّه إليه سلفُها " مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً"[1]

وكمال العبد بالعزيمة والثبات، فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص.

4- الثقة

وهي اطمئنانُك لقيادتِك وكفاءتِها وإخلاصِها وتجرُّدِها، اطمئناناً يُنتج اتِّباعها وحبَّها وتقديرها والإخلاص لها، فعلى قدر الثقة المتبادلة بين القائد والجنود تكون القوة، ويكون النظام، ويكون نجاح الخطط والوصول إلى الغاية، فالثقة بالقيادة هي أساسٌ في نجاح العمل ومنه الجهاد "فاظْعَنْ حيثُ شِئتَ وصِل حَبْلَ من شِئت، واقطع حَبْلَ من شِئت، وخُذ من أموالِنا ما شِئت، وأعطِنا ما شِئت، وما أخذتَ منّا كان أحب إلينا مما تركت، وما أَمَرت فيه من أمرٍ فأمرُنا تبعٌ لأمرك، فوالله لئن سِرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرنَّ معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته، لخضناه معك"[2] هكذا كانت ثقةُ القاعدة المتمثلة بالصحابة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- بالقيادة التي شرُفت برسول الله -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- .

5- تحمل المسئولية

[1] الأحزاب 23

[2] زاد المعاد 3/173

لا يُمكن أن نتصوَّر جندياً بلا مسئولية، كما لا يمكن أن نتصوَّر مسئولية دون أن يكون لها من يحملها ويتحمَّلها، فتحمُّل المسئولية من أبرز صفات الجندي حيث يقوم بما حُمِّل به خير قيام، ثم يحذرُ أن يؤتى الخلل والنقص من جهته إن قصَّر أو فرَّط أو تكاسل.

يقول عليه الصلاة والسلام: "ألا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مسؤول عن رَعِيَّتِهِ"[1] وبذلك يوجب النبي- صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- تحمل المسئولية على من ألقيت على عاتقه وقَبِلها أياً كان: أباً أو أماً أو خادماً أو أميراً أو خفيراً أو أجيراً.

بل إن التهاون في ذلك هو نوعٌ من الخيانة التي نُهينا عنها والتي لا تتناسب البتَّة مع ديننا وعقيدتنا وسلوكنا ومسلكنا"يأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَخُونُواْ الله وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ"[2]

ولن تنتصر الدعوات ولن تنجح الأعمال ولن تُبلغ الغايات، إلاَّ إذا قام كلٌ مِنَّا بدوره المناط به خير قيام، وعلى العكس تماماً فإن الفشل والتَّأخر والهزيمة نتائج تُحَالِفُ كل من أخذ الأمور بالتهاون، وأعطاها فَضْلَتَ وقته وجهده وتفكيره.

إن الجهاد أيها الفارس: يكشف لك من اسمِهِ قبل تَبِعاتِهِ وواجباتِهِ أنَّه المسئولية، لأنه بذل الجهد، ولا يبذُل جهده إلا من استشعر المسئولية، فهل عسيت أن تكسب جولةً أو تنتصر في معركة أو تحقق مكسباً أو تمكُّن في أرضٍ دون أن يكون عندك ذلك الشعور وتلك النفسية وذلك الحرص؟! كلا فالأمر ليس بأمانينا، بل هي معادلاتٌ وسُنن من حاول أن يتجاهلها أو يتخطَّاها كان الناتج سلباً والدرجة صفراً "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ "[3]

والقيادة لا بدَّ من أن تُعطي أفرادها النموذج الأمثل في تحمُّل المسئولية، والأفراد لا بدَّ من أن يُعطوا قيادتهم الالتزام الأكمل في تحمل المسئولية، ويكفيك من ذلك نموذجين، نموذج القائد أمام مسئولياته، ونموذج الفرد أمام تكليفاته:

أذللت الخلفاء من بعدك

---

[1] رواه مسلم برقم 1829
[2] الأنفال 27
[3] محمد 31

يقول علي بن أبي طالب – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –: "رأيت عمرَ على قتبٍ يعدو به بعيرُه بالأبطح، فقلت: يا أمير المؤمنين أين تسير؟! فقال: بعيرٌ من إبل الصدقة شرد أطلبه. فقلت: أذللت الخلفاء من بعدك!! فقال: لا تلُمني فوالذي بعث محمداً –صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– بالحق لو أن عَناقا[1] ضلت بشاطىء الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة، إنه لا حرمة لوالٍ ضيَّع المسلمين ولا لفاسقٍ روَّع المؤمنين."[2]

بئس حامل القرآن أنا إذا

لما أخذ سالم مولى أبي حذيفة الرَّايةَ يومَ اليَّمامة بعد مقتل زيد بن الخطاب – وهو هنا يُمثِّل حالة الفرد المكلَّف بمسئولية محددة – قال له المهاجرون: أتخشى أن نؤتى من قِبلك؟ فقال: بئس حامل القرآن أنا إذا، فقاتل قتال الأبطال حتى انقطعت يده اليمنى فأخذها (أي الراية) بيساره فقطعت فاحتضنها وهو يقول:"وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ "[3] ويقول: "وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ "[4] فلما صُرع قال لأصحابه: ما فعل أبو حذيفة؟ قالوا: قتل. قال: فما فعل فلان؟ قالوا: قتل. قال: فأضجعوني بينهما"[5]

إنها الراية ومسئولية حملها .. أيَّاً كانت هذه الراية، وأيَّاً كان موقعها ، وأيَّاً كان حجمها ومستواها؛ فالمهم أن تحملها بأمانة ومسئولية، والأهم أن لا نؤتى من قِبلك.

وأخيراً: لا تنسَ أنَّك جندي..
ولا تنسَ أنك على ثغر..
ثم لا تنسَ أنَّك أن تكونَ ذنباً في الحق خيرٌ لك من أن تكون رأساً في الباطل.

---

[1] الأنثى من المعز
[2] من سيرة عمر رضي الله عنه
[3] آل عمران 144
[4] آل عمران 146
[5] البداية والنهاية 6/337

الوصية الرابعة عشر

احذر الشهوة الخفية

كثيرةٌ هي الشهوات التي تُحاصر الإنسان، ثم تتجاذبه ثم تنهشُه، محاولةً أسرَهُ وقَيْدَهُ وإعاقَتَهُ من الرقي في مدارج الإيمان والسلوك والإخلاص، وليس ذلك بغريب، فهذه الشهواتُ هي من البلاء الذي كَتَبَ الله تعالى أن يَمتحن به عباده ليميز الخبيثَ من الطيب، والصادقَ من الكاذب، والقويَ من الضعيف"حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ"[1] ولكن الغريبَ هو أن يُسلم الإنسانُ نفسه لهذه الشهوات، وينقادُ لها، ويكون طَوع بنانِها ورهن إشارتها، بل يكون عبداً لها إذ جعلها له إلهاً "أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاه"[2] هنا العجبُ وهنا الغرابة أن يَأْسِرَ الإنسانُ نفسهُ بنوعٍ من تلك الشهوات والأهواء.

إنَّ المجاهد حرٌ فكيف يقبل بالأسر؟! وكيف يرضى بالقيد؟! وكيف يألفُ العبودية؟! بل كيف يخرُج من الدنيا ليقع فيها؟! وكيف يهرب منها لتَصطاده؟! وكيف يزهدُ فيها فتملكه؟! لا شكَّ أنها أسئلة متناقضة، ومفارقات عجيبة لا يمكن أن يجيب عليها إلا من اتبع هواه، واتخذه له إله.

أيـها الفارس:

صاحِبُ الشَّهوةِ عَبْدٌ فإذا غَلَبَ الشَّهوةَ صَارَ الْمَلِكَا

إنَّ الملِكَ ليس في الحكم، بل الملِكُ في التَّحكم، حين تَحْكُم هذه الشهوات وتُلجمها وتُعيقُها قبل أن تعيقك، وتكسرُها قبل أن تكسرك، وتنتصرُ عليها قبل أن تنتصر عليك؛ إذ كيف ينتصرُ على الآخرين من لم ينتصرْ على شهوته؟!

وفي العمل الجهادي، وفي سوح الجهاد – حيث تكثُر المسئوليات التي تُبرِزُ أصحابها في الغالب – تَبرُزُ شهوةٌ يسميها أهل التربية والسلوك (الشهوةُ الخفيَّة) وهي حُبُّ الرياسة والقيادة!! شهوةٌ تستعصي على

---

[1] رواه مسلم برقم 2822
[2] الفرقان 43

من لم تستعصي عليه الجيوش الهادِرَةُ، والأسوارُ القاهرة، والأسلحةُ المدمرة!! فهي تحدياتُ نفسٍ أقسمَ الله بها حيث ألهمها فجورها وتقواها.. إنّه إغراءُ الرياسة وبَطَرُ المنصب، وهو ما فطن له شداد بن أوس وحذَّر منه حيث قال لأصحابه يوم أن تسجَّى بثوبه ثم بكى فقالوا: ما يُبكيك؟! قال: (إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم: الشهوةُ الخفية، والرياء الظاهر إنكم لن تُؤتوْا إلا من قِبَلِ رؤوسِكم، إنكم لن تؤتوا إلا من قبل رؤسِكم، إنكم لن تؤتوا إلا من قبل رؤسِكم، الذين إن أَمروا بخير أُطيعوا وإن أَمروا بشر أُطيعوا!! وما المنافق؟! إنما المنافق كالجمل اختنق فمات في ربقه[1] لن يعدو شره نفسه)[2]

لقد امتلأ تاريخُنا وتاريخ غيرنا من مقدمات هذه الآفة الخطيرة النكدة ونتائجها، حيث التَّشاحُنُ والتَّلاعنُ والتطاحنُ على حُطامِ كرسيٍ، أو بقايا دولةٍ، أو مُسَمَّى جماعةٍ أو تجمُّع، ثم الاقتتالُ والدماء بين أقرب الناسِ نسباً ورَحِماً وآصرة!! ثم يمضي الجميع ويبقى الحطام شاهداً على دناءةِ وخِسَّة وحقارةِ النُّفوس التي ذهبت من أجله!!

حبُ الرياسةِ داءٌ يُخلِقُ الدينا ... ويجعَلُ الحبَّ حرباً للمُحبينا

ينفي الحقائق والأرحام يقطعها ... فلا مروءة يُبقي لا ولا دينا[3]

فما بال أؤلئك؟! يَتَعَلَّمُ أحدُهم كيف يَعْمَلُ، ويَتحمَّلُ مؤونَةَ العملَ فيعملُ بما قد عَلِم، ولا يتعلَّمُ الصِّدقَ فيما يتعلَّمُ ويَعمل؟! يعيشُ ما عاشَ، ويموتُ إذا ماتَ ولم يَنْتَبِه لذلك!!

لسنا بحاجة لمنتفعين

أن هذا الطريق لا يستوعِبُ أصحاب المصالح والانتهازيين؛ إذ أن طبيعتَهُ الصدقُ في حَملِهِ، لأنَّه ثقيل لا يَحْتَمِلُهُ الضِّعاف، ولا يَتَحمَّلُ هو الضعاف، فمن ضَعُف عن هذا العبء، وجلس يتحيَّنُ لذة القطْفِ بعد تَعبِ غيره في الزرع فسيحرم ثواب المجاهدين، ويُخلَّف مع المخلَّفين، ويَقعُدُ مع القاعدين، ويستبدِلُ الله

---

[1] خديعته ومكره
[2] الزهد لابن المبارك2/ 16
[3] ديوان أبو العتاهية

لدينه به قوماً صادقين " يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذالِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ [1] ".

ونحن بعد ذلك لسنا بحاجة للذين يعيشون حالة النَّفعية مع هذا الطريق لا يبذل مَعُونَتَهُ إلا إذا عرف ما يعودُ عليه من فائدةٍ وما يجرُّهُ إليه هذا البذلُ من مَغْنَمٍ. لا يرى لله الحقَّ الأول في نفسهِ ومالهِ ودنياه وآخرته!! تماماً كالذي قال للنبي-صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- (أرأيتَ إن نحنُ بايعناكَ على أمرِكَ ثُمَّ أظْهَرَكَ اللهُ على من خَالَفَكَ أيكونُ لنا الأمرُ من بعدك؟!

(إنها الشهوة الخفية التي تأبى إلا أن تظهر وتتحدث وتصرّح) قال: "الأمر إلى الله يضعُهُ حيث يشاء". فقال له: أفنهدِفُ نُحورنا للعرب دونكَ فإذا أظهركَ اللهُ كانَ الأمرُ لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه)[2]

إنها النفعية والانتهازية بأبشع صورها وأشكالها، حيث لا يرى هذا النَّفعي للعمل - الذي تقدَّم له- من جُهده وجَهده وجِهاده محلاً، إلاَّ بقدر ما يقدِّمُ له ذلك العملُ من مكاسِبَ، فإمَّا قائِداً أو رئيساً أو مسئولاً أو مقدَّماً مرموقاً وإلاَّ فلا!!

أيـها الفـرسان:

" إنَّا لا نُوَلِّي هذا من سَأَلَهُ ولا من حَرَصَ عليه"[3] هذا ما صرَّح به النبي - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- لمن جاءه يطلبه الإمارة، إذ كيف نُحيي الدنيا في قلبِ من زهد فيها ونُعينُه على ذلك؟! فالنَّاسُ قد يزهدون في كثيرٍ من الأمور وفي الكبيرِ منها، ولكنَّ الأمر إذا وصل إلى الكرسي والقيادة تحرَّكت الشهوة الخفيَّة ونازعت وتنازعت، وكما قال الثوريُّ رحمه الله (مارأيتُ الزُّهد في شيء أقل منه في الرياسة)[4]

حبُّ الرئاسةِ أطغى من على الأرضِ   حتَّى بغى بعضُهم منها على بعضِ[5]

---

[1] المائدة 54
[2] السيرة النبوية 2/272
[3] رواه البخاري برقم 6730
[4] العزلة والانفراد 1/146
[5] أبو العتاهية

إنَّ الصادق لا يحتاجُ إلى تزكية نفسهِ ليُختار، ولا أن يتعنَّى فيْعرُضَ نفسه ليُختار، فصدقُه في العمل يُقدِّمه، وإخلاصُه في الجُهدِ والبذلِ يكشفُه، وموهبتُه وقدرتُه وإمكانياتُه تُنصِّبه.

وهنا يَبرُزُ جوابٌ لسؤالٍ ربما يدورُ في خلدِك يقولُ:هل يريدونها حكراً على بعضِهم؟

والجوابُ: لا. لا نُريدُها حكراً على شخصٍ أو فئةٍ، وما كُنَّا لنمنعَ أحداً حقَّهُ، أو نحجبَ النُّصوص، أو نلوي أعناقها لمصالح شخصية، أو ترتيباتٍ سياسية، ولكن نقولُ لك ما قال النبيُ –صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– لعبد الرحمن بن سَمرةَ يوصيه: "يا عَبْدَ الرحمن بن سَمُرَةَ لا تَسْأَلْ الإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِن أُوتِيتَهَا عن مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا وَإِنْ أُوتِيتَهَا من غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عليها"[1] (والحكمةُ في أنه لا يُولَّى من سأل الولاية، أنَّه يوكل إليها ولا تكون معه إعانة..، وإذا لم تكن معه إعانة لم يكن كُفئاً، ولا يُولَّى غير الكفء، ولأن فيه تهمة للطالب والحريص)[2] فنحنُ هنا نُشفق ونَرفق، لا نحتكِرُ ونُغلق، فالحِملُ ثقيل، والمسئولية كبيرة وربما كُنت ضعيفاً كما صرَّح بذلك النبي– صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– لأبي ذر– رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – "إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ وَإِنَّهَا يوم الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إلا من أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الذي عليه فيها "[3] فهي إذاً كذلك، حملٌ ثقيل لا يُغري أحداً بالتَّعرضِ أو التَّصدر له اللَّهم إلاَّ رجلٌ أكبرُ همِّهِ الدنيا، أو رجلٌ تحمَّلها بتكليفٍ وهو كارهٌ لها لا ينظُر فيها إلاَّ إلى الخدمة الشَّاقة التي ينالُ من ورائها الأجر والمثوبة.

شيطانٌ يدفع وشرعٌ يمنع

وهنا يبرُز الشيطانُ في ثوب الفقيه الدَّافع إلى الاحتجاج بالشرع، ويأتيك ببعض الحوادثِ التي أُسندت من خلالها الرئاسةُ استثناءً لمن طلبها كزياد بن الحارث – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –إلاَّ أنَّ من فَقِهَ أنَّ لكل قاعدةٍ شواذ عرف أن الأمور لا تخلو من استثناءاتٍ تُقدَّرُ بقدرها، ونحن نتحدث عن مسألةٍ عامة لا تخلو من استثناءات لا تقوى على هَدْمِ الأصل، وهذا ما حدث مع زياد ابن الحارث الصدائي – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – وتعال نتدَّبر ما حدث معه ثم نحكم.

استثناءٌ أول:

[1] رواه مسلم برقم 4235
[2] شرح النووي على مسلم12/208
[3] رواه مسلم برقم 1825

قال- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: (أتيتُ رسول الله فبايعتُه على الإسلام فأُخبِرتُ أنَّه قد بعث جيشاً إلى قومي. فقلت: يا رسول الله: أردُدِ الجيشَ وأنا لك بإسلامِ قومي وطاعتِهم، فقال لي: اذهب فرُدَّهم فقلتُ يا رسول الله: إنَّ راحلتي قد كلَّت، فبعثَ رسولُ الله رجلاً فردَّهم قال: وكتبتُ إليهم كتاباً فقدِم وفدهم بإسلامهم، فقال لي رسول الله: يا أخا صَداء إنَّك لمطاعٌ في قومِكَ فقلت: بل الله هداهم للإسلام! فقال: أفلا أُأمِرُكَ عليهم؟ قلت: بلى يا رسول الله قال: فكتب لي كتابا أمَّرني)[1]

إذاً هو قبِل بعرضِ النبي - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- حيثُ عرض عليه الإمارة حين رآه مُطاعاً في قومه فقبلها -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - لمعرفته بمكانته في قومه ومدى تأثيره عليهم وما في ذلك من مصلحة للإسلام.

ولكن جاء في بعض الروايات أنَّه طلبها من النبي - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- فأعطاه إيَّاها، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله مُعقِّباً ومبيِّناً ومستثنياً ودافعاً لشبهة من لديه شبهه في جواز طلب الإمارة مطلقاً حيث يقول:(وفيها جواز تأمير الإمام وتوليته لمن سأله ذلك إذا رآه كفئاً، ولا يكون سؤاله مانعاً من توليته، ولا يناقض هذا قوله في الحديث الآخر: "إنَّا لَن نُولِّي على عَمَلِنَا من أرادَهُ" فإن الصدائي إنما سأله أن يُؤمره على قومه خاصةً، وكان مُطاعاً فيهم مُحَبَّباً إليهم، وكان مقصودُه إصلاحَهم ودعاءَهم إلى الإسلام، فرأى النبي-صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ-أن مصلحةَ قومِهِ في توليته، فأجابه إليها. ورأى أن ذلك السائل إنما سأله الولاية لحظِ نفسه ومصلحتِهِ هو فمنعه منها، فولَّى للمصلحة ومنع للمصلحة فكانت توليته لله ومنعه لله)[2]

وفي كلا الحالتين وعلى كل حال فإن الروايات أثبتت أن الصدائي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -ردَّها على النبي - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- هي وشيء من الصدقة طلبها منه لما سمعه يقول: "لا خير في الإمارةِ لرجُل مسلم"، ثم قال لرجل قال:يارسول الله أعطني من الصدقة، فقال رسول الله: "إن الله لم يكِل قسمتَها إلى مَلَكٍ مُقرَّبٍ ولا نَبِيِّ مُرسل حتى جزَّأها ثمانية أجزاء، فإن كنت جُزءاً منها أعطيتُك، وإن كُنتَ غنياً عنها فإنَّما هي صُداعٌ في الرأس، وداءٌ في البطنِ قال: فقلتُ في نفسي هاتانِ خصلتان حين سألتُ الإمارةَ وأنا رجلٌ مسلم، وسألتُه من الصدقة وأنا غنيٌ عنها، فقلت: يا رسول الله هذان كتاباك فاقبلهما فقال رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- : "ولم"؟! فقلتُ: إني سمعتك تقول: "لا خير في الإمارة لرجل مسلم" وأنا

---

[1] البداية والنهاية3/38
[2] زاد المعاد3/ 668

مسلم وسمعتك تقول: "من سأل من الصدقة وهو غني عنها فإنما هي صداع في الرأس وداء في البطن" وأنا غني فقال رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- : "أما إن الذي قلت كما قلت" فقبلهما رسول الله ثم قال لي: "دُلني على رجلٍ من قومك أستعمله" فدللتُه على رجل منهم فاستعمله.[1]

استثناءٌ ثانٍ:

وربما وجب على المرءِ (استثناءً) أن يتقدَّم لها إذا (احتيج إليه)، ورأى أن فيه من القدرة والكفاءة ما يؤهِلُهُ لذلك، وهذا قياسٌ على (تعيُن الجهاد على من احتيج إليه) كما أفتى الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في مسألة تعين الجهاد على من احتيج إليه فيقول:وربما نقول أن هذه المسألة(يعني تعين الجهاد على من احتيج إليه) تؤخذ من قولنا: فرض كفاية(يعني الجهاد) لأن إذا لم يقم به أحدٌ واحتيج إلى هذا الرجل ففرض الكفاية يكون فرض عينٍ عليه.

ونحنُ نقولُ من احتيج إليه ورأى في نفسه الأمانة والقوة والكفاءة ووجد من يزكيه في ذلك وجب عليه أن يتقدَّم ويحمل العبئ بعد التوكل على الله، فالله مُعينه.

وماذا عن طلب يوسف عليه السلام؟

ولعلنا ندفع بذلك أيضاً شبهة يمكن أن تجد لها مسلكاً ومنفذاً في هذا إن قال قائل: ماذا عن طلبِ يوسف عليه السلام أن يكون على خزائن الأرض وهي هنا تعني الملك؟!فنقولُ:

1- أن يوسف عليه السلام كان نبياً ومؤيداً ولا شك كفء.

2- أنه رأى الحاجة إليه، وأنه لا يوجد من هو أكفءُ منه، ولا من يسدُ المكان الذي يمكن أن يسده.

3- كما أن الوضع الذي تقدَّم فيه يوسف عليه السلام كان وضعاً صعباً واستثنائياً، حيث المجاعة العامة والقحط المميت، فلا غنيمة ولا بحبوحة ولا ميِّزة لمن يتقدم والأمر كذلك، بل العنت والتعب والأحمال الثِقال.

وكما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله:(لستُ بخيركم، وإنَّما أنا رجلٌ مِنكُم، ألا وإني أثقلُكُم حملاً)[1] فاحذر الدَّفع وخُذ بالمنع، فإنَّما هو شيطانٌ يدفع وشرعٌ يمنع.

---

[1] نفس المصدر السابق

خرجت لتموت أو تنتصر فاحذر أن تهلك أو تنكسر

أيها الفارس:

يقول أبو نعيم:(والله ما هَلك من هلك إلا بحب الرياسة!!)[2] فهو الهلاكُ إذاً، وعلى ماذا ؟! على لُعاعةٍ من الدنيا؟! " تَعِسَ عبد الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إن أُعْطِيَ رضِي وَإِنْ لم يُعْطَ لم يَرْضَ"[3] إنَّه الاستعباد الذي تضربه هذه الشهوة على جبينِ من سال لعابُه عليها فطلبها، أو خفقَ قلبُه لها فأضمرها، فلا والله لزوال الدنيا بعد ذلك أهونُ عليه من زوالها منه، ولإزالة الجبال الرواسي أيسرُ من إزالتها من قلبه.

أيها الفارس: حب الرياسة داءٌ لا دواء له، فَفِرَّ منها فِرارَكَ من المجذوم أو فرارَكَ من الأسد.

الوصية الخامسة عشر

مع الغُرباء حلِّق

غرباءُ ولغيرِ الله لا نحْني الجِباه   غُرباءُ وارتضيناها شِعاراً للحياه

"تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ"[4]

(المؤمِنُ في الدُّنيا كالغريبِ، لايجزعُ من ذُلِّها، ولا يُنافس في عزِّها. للناسِ حالٌ ولهُ حال، النَّاسُ مِنهُ في راحةٍ وهو من نفسِهِ في تعب)[5]

الغُربة: شعارٌ رُفِع فلم ينضو تحته إلا المؤمنون الصادقون، والأولياء المقرَّبون، والمجاهدون الثابتون.

---

[1] سيرة عمر بن عبد العزيزص 40
[2] جامع العلم وفضله1/145
[3] رواه البخاري برقم 2730
[4] القصص 83
[5] قول للحسن البصري- مدارج السالكين3/197

والمجاهِدُ لا بُدَّ أن يكون حاله غير الحال، وصفته غير الصفة، وهمُّه غير الهم الذي يكون عليه غالبُ الناس، ويحمله عامة الناس، وما ذاك إلا ليكون مؤهلاً للأمر الذي يَحمل، وقادراً على مواجهة كل المخالفين والمتربصين، وصبَّاراً على الدَّرب الطويل الممتد إلى يوم القيامة!! منتمياً إلى العصابة التي امتدحها النبي الكريم بقوله:"لا تَزَالُ عِصَابَةٌ من أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ على أَمْرِ الله قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ لا يَضُرُّهُمْ من خَالَفَهُمْ حتى تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ على ذلك"[1].

ولا شكَّ أن الأمر شاقٌ وموحش إلاَّ على هذا الطراز الفريد من البشر!! ويؤكد هذا ابن الجوزي رحمه الله عندما يُطمئِن قوافل السائرين في طريق الغربة هامساً في آذانهم(فهذه الغربةُ لا وَحشةَ على صاحبها، بل هو آنَسُ ما يكون إذا استوحش الناس، وأشدُ ما تكون وحشتُه إذا استأنسوا، فوليه الله ورسوله والذين آمنوا وإن عاداه أكثرُ الناس وجفوه)[2]

فارقت فأبشر

أيها الفارس:

إنني لأشعُرُ والله بما تشعُرُ به، وأعلمُ أنَّكَ حين لوَّحت بكفِّ الوداعِ لوالديكَ أو لإخوانكَ وأخواتك أو لزوجتكَ وأبنائِك ومضيت – أعلم- أنَّ الشُعور الآن هو شعورُ اقتلاعِ الأرواحِ من أجسادِها، لا اقتلاعِ الأجسادِ من أرضها!! وانتِزاعِ القلوبِ من صدورها، لا تركِ الأفرادِ لمرابِعها!! واجتِذاذِ الأكبادِ من أجسادِها لا رحيلِ الأبدانِ عن أوطانها!!

وأعلمُ أيضاً أنني أصِفُ شيئاً أصعبُ من الموتِ حين تراه، ومن الهولِ حين تلقاه " وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ"[3]

نعم: أعلمُ أنك فارقت الأهل والولد والمال وأنت أحوجُ ما تكونُ إليهم!! فارقتَهُم لله وفي الله وفي سبيل الله، ونعلمُ أنَّ أمراً كهذا لا يُطيقه إلاَّ أشداءُ الرِّجال ألوا الهِمم العالية، والقلوب الصافية، والنفوس الزاكية،

[1] رواه مسلم برقم 1924
[2] مدارج السالكين3/ 197
[3] النساء 66

والأرواح المتعلقة بخالقها، وسرتَ طوعاً في غربتك التي اخترت فطوبى لك "بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كما بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ"[1]

إن هذا الدعاء وتلك البشرى من النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– لهذه الطائفة من أمته لتُعطينا دلالة واضحة على وجوب تَمَيُّزِ المسلم عن غيره من الناس، والمتميزون قليلون!! أو قُلْ أن الذين يقبلون هذا التميز وويطيقونه قليلون، لما يتطلبه من صبر وتحمل وتجلُّد "قِيلَ مَنِ الْغُرَبَاءُ يا رَسُولَ الله قال أُنَاسٌ صَالِحُونَ في أُنَاسِ سَوْءٍ كَثِيرٍ من يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ "[2]وهذا التوصيفُ ليس سهلاً أن ينطبق على المرء مالم يكن عنده من الإيمان والصبر والثبات ما يؤهله لذلك، فهو كقبض على الجمر كما أخبر النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– ، بل للعامل الثابت المتَمَسّك في مثل هذه الظروف التي تمرُّ به الحركة الجهادية اليوم، أو الحركات الدعوية العاملة، أوالدعاة العاملون والعلماء المخلصون أجر خمسين من الصحابة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم– فهي أيام صبرٍ "فإن من وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فيه مِثْلُ قَبْضٍ على الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ قال: يا رَسُولَ الله أَجْرُ خَمْسِينَ منهم قال: أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ "[3]

فإنْ تَسْأَلّني كيف أنتَ فإنني صبورٌ على ريبِ الزّمانِ صعيبُ
حريصٌ على أنْ لا ترى بِي كآبةٌ فيشْمتَ عادٍ أو يُساءَ حبيبُ[4]

والغرباء هم نُزَّاعٌ من القبائل جاؤوا فرادى من بلادٍ شتىَّ وألوان شتى وألسنة شتى، تغربوا عن قبائلهم وشعوبهم أهلهم يجمعهم الإيمان بالله والإيمان بالفكرة والإيمان بالطريق.

وهم مع ذلك –ووجب التنبيه– ليسوا نزّاعاً من الدُنيا، غرباء عن ثوبها وحركتها ونشاطها، بل منهم المعلِّم والدكتور والمهندس والطالب وأصحاب الشهادات العليا في كل فن من الفنون، لا كما يحاول أن يُصورهم البعض نزّاعاً من الدنيا، دفعهُم إلى هذا الطريق واقع اليأس والبأس والفقر والجهل والاضطهاد الذي يعيشون!!. كلا بل جاؤوا وتلكَ هي صفتُهم وذلك هو حالُهم ليُثبتوا أنَّ هذا الطريق هو طريقُ أهل الإيمان

---

[1] رواه مسلم برقم145

[2] رواه الإمام أحمد برقم 6650 وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث حسن لغيره

[3] رواه ابن حبان في صحيحه برقم 385 وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم

[4] ديوان علي بن أبي طالب رضي الله عنه

الذي فيه كل هؤلاء وأمثال هؤلاء، ومن كان من أهل الإيمان وجب أن يكون من أهل النُّصرة لدينه وعقيدته وفكرته فـ"الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة" لا يُبْطِلُه جورُ جائر ولا عَدْلُ عادل، ولا يوقفه قعود قاعدٍ، ولا تثبيطُ مثبّطٍ، ولا إرجاف مرجف.

ولعل مجيأهم وهم على هذا المستوى من التأهيل فيه تجسيدٌ لمعنى الغربةِ الحقيقي إذ الطبيعة في هذه الحال الحرص على الشهادة والوظيفة والمنصب، ثم النظر – من الآخرين- بعين التعجُّب، والحديث بلسان التندر بمن يضحي بهذه المؤهلات والمميزات وينطلق سائراً في هذا الطريق!! أهل يلومون وأصحابٌ يُحذِّرون ومجتمعات تتوعَّد، فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الذين قد اتَّبعوا حظوظ نفوسِهم، وأطاعوا شحهم، وأعجب كلٌ منهم برأيه؟!

وهنا يبرزُ التوجيه التربوي النبوي: "حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ وَدَعْ أَمْرَ الْعَوَامِّ "[1] وامض وحيداً غريباً "فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ"[2]

فهي عزلةُ مُضيّ لا عُزلة انعزال، عزلةٌ يبتعدُ فيها المجاهِدُ عمَّا يعوقه ويُثقلُ حركته ويُبطئُ تقدُّمه، لا عمَّا يوصلهُ لغايتهِ ويُبلِّغُهُ هدفه، عُزلةٌ ميدانُها القلبُ لا الأرض، والفِكرُ لا الفِكرة، والشعورُ لا المشاعِر، فقلبُه للجهاد، وفِكرُهُ مع الجِهاد ومشاعِرُه تتوقَّدُ بالجهاد.

أخصُّ الناسِ بالإيمانِ عبدٌ — خفيفُ الحاذِ[3] مسكنُه القِفارُ
له في اللَّيلِ حظٌ من صلاةٍ — ومِن صَومٍ إذا جاءَ النَّهارُ
وقوتُ النَّفس يأتي في كفافٍ — وكان له على ذاكَ اصْطِبارُ

---

[1] رواه ابن حبان في صحيحه برقم 385وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم
[2] النساء 84
[3] خفيف الظهر

وفيهِ عِفَةٌ وبه خُمولٌ إليهِ بالأصابعِ لا يُشار
وقلَّ الباكيات عليهِ لَمّا قَضى نَحْباً وليسَ له يَسَارُ
فذلِكَ قد نَجا مِن كلِّ شرٍّ ولم تَمْسَسْهُ يومَ البَعْثِ نَارُ

طبيعةٌ تقتضي وشخصيةٌ تلتزم

أيها الفارس:إن طبيعةَ الطريق وطبيعةَ المرحلة وطبيعةَ الشخصية الجهادية تجتمعُ كلُّها لتأبى التَّأقلم مع البيئةِ التي يظهرُ فيها البُعد، والمخالفة، والتجاوزُ على المنهج، والخروجِ عن الجادَّة(وهي تماماً طبيعة الغرباء) فهو طريقٌ طبيعتُه الواضحة، ومهمته الأولى العودةُ إلى المنهج الصحيح والطريق المستقيم، وأي مخالفةٍ لهذه الطبيعة من سُلاَّكِ هذا الطريق والقائمين عليه يعني الخروج عن الجادة، تماماً كخروج القطار عن سكَّته!! فأوَّلُ المصِير هو آخر المصير، حيثُ عدم الوصول إلى لهدف لأنَّ الجادة قد ضاعت والقاطرة تحطَّمت.

وجماعة المجاهدين لا بد أن توفِّر لأفرادها أجواء الغربةِ بعد أن تربيهم عليها، وهي مع ذلك لا بدَّ أن تكون متوازنةً في توظيف هذه البيئةِ التربوية الهامة، فهي غربةٌ عن الأوضاع السائدة، لابُعدٌ عنها فالفرقُ كبيرٌ بين أن تغترب وبين أن تبتعد، فالغريب متواصلٌ والبعيدُ منقطع، والغرباء ليس من طبيعتهم الابتعاد بل كما قال النبي –صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– : "فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ ما أَفْسَدَ الناس من بَعْدِي من سُنَّتِي"[1]وفي روايةٍ أخرى "هم المتَمسِّكون بِما أَنتُم عليهِ اليوم" فهو إصلاحٌ ولا يكونُ الإصلاح بالبعد والانقطاع!! وهو تمسكٌ بما كان عليه الصَّحب الكرام، وقد كانوا على أكمل الوجه في العملِ والجهادِ والدعوةِ إلى الله، وهم مع ذلك الغرباء المجسِّدون حقيقة الغربة رغم الخوفِ والهجر والمجافاة.

والغرباء لولا مخالطتهم الخلق ونصحهم لهم وإنكارهم عليهم لَمَا أبغضوهم، ولما كان الذي يَعصيهم أكثر من الذي يُطيعهم ويؤكد ذلك الثوري –رحمه الله– في حديثه عن غربة العلماء فيقول: (إذا رأيتَ العالِم

[1] رواه الترمذي برقم 2630وقال حديث حسن صحيح

كثيرَ الأَصدِقاءِ فاعلم أنَّه مُخَلِّط، لأنه إن نَطق بالحقِ أبغضوه)[1] فهو مخالِطٌ إذاً ولكن غير مخلِّط، ومُنكرٌ غير مُداهن، وداعٍ غير مُنعزل.

وأهم أجواء الغربة التي يجبُ أن توفرها جماعة المجاهدين لفُرسانِها هي تربيتهم على (فنُّ التَّخفي) فكما تُدربهُم على فنونِ القتال والتخفِّي والمباغتة والهجوم في الميدان العسكري، كان لزاماً عليها أن تربيهم على فن التَّخفي في الميدان التعبدي (العملي منه والقلبي) وتسلُكُ بهم مَسْلَكَ معاذ بن جبل - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - في استشعار هذه القيمة التربوية العظيمة، حيثُ أنَّ عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - خرجَ إلى مسجدِ رسول - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- ، فإذا هو بمعاذ بن جبل - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عندَ قبر رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- يبكي!! فقال: ما يُبكيكَ يا مُعاذ؟! قال:يُبْكِيني شيءٌ سَمِعْتُهُ مِن صاحبِ هذا القَبْرِ قال: وما سَمِعْتُهُ؟! قال: سَمِعْتُهُ يقول:"إنَّ اليّسيْرَ مِنَ الرِّياءِ شِرْكٌ، وإنَّ مَن عَادى وليَّ اللهِ فَقد بَارَزَ اللّهَ تعالى بالمحاربةِ، وإنَّ اللهَ يُحِبُّ الأتقياءَ الأخفياءَ الذين إنْ غابوا لَمْ يُفْتقدوا، وإنْ حَضروا لَمْ يُدْعَوا ولِمْ يُعرفوا، قُلوبُهم مَصابيحُ الهُدى يَخْرجون مِن كُلِّ غَبْراءَ مُظْلِمَة"[2]

إذاً: فكما أن فنَّ التَّخفي عن العيون يُعينُ المقاتل على البقاء والاستمرار في أرض المعركة ومن ثمَّ الخروجُ منها منتصراً على العدو؛ فإن فنَّ التخفي عن الخلق يُعينُه أيضاً على التوفيق والثبات في معركة الحياة، والنصر على أعدى أعدائه: نفسُه التي بين جنبيه، وكذلك على عدوِّه التقليدي الشيطان الرجيم

تَستَّرتُ مِن دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِـهِ ... فَعَيْنِي تَرى دَهْري ولَيْس يَراني

فَلوْ تَسْأَلِ الأَيَامَ مِا اسْمِي لَمَا دَرَتْ ... وَأَينَ مَكَانِـي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي[3]

صحَّت البداية فصحَّت النهاية

ولن تكون بداية المغترب خيرٌ من نهايته!! فكما كانت البداية "طوبى" فالنهاية هي كذلك "طوبى" وإنما العبرة في الخواتيم وكما قيل: ليس العَجَبُ مِمَّن هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ إنَّما العَجَبُ مِمَّن نَجَا كيف نَجا؟!.

---

[1] إحياء علوم الدين1/381

[2] رواه الحاكم في مستدركه برقم 7933وقال رحمه الله هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه

[3] ديوان الحسن بن هانئ

ففي صحيح ابن حبان [باب: ذكر إعطاء الله المتوفي في غربته مثل ما بين مولِدِه إلى مُنْقَطَعِ أَثَرِهِ مِنَ الجنَّة]

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قَالَ تُوُفِّيَ رَجُلٌ بِالْمَدِينَةِ فَصَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- فَقَالَ يَا لَيْتَهُ مَاتَ فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ النَّاسِ لِمَ يَا رَسُولَ الله؟! قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَاتَ فِي غَيْرِ مَوْلِدِهِ قِيسَ لَهُ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَى مُنْقَطَعِ أمرِهِ فِي الْجَنَّةِ"[1]

فهي غُربةٌ ليس عليك فيها وحشة لإنَّك مع الغرباءِ تُحلِّق.

الوصية السادسة عشر

دع المراء فإنه يهدم المروءة[2]

قال الأوزاعي رحمه الله: إذا أرادَ الله بقومٍ شراً فتح عليهم الجَدل ومَنعهم العَمل.[3]

إنَّ جماعةً أو مجموعةً تقودُ عملاً ما، أو تستعِدُ للنَّجاحِ في مشروعٍ ما لا تتخِذُ الصَّمت شعاراً ومن ثمَّ حكمةً يُنيرُ لها طريقها، لجماعةٌ خاسِرةٌ بائرة، ذلكَ لأنها اتَّخذت من فصاحةِ لِسانِها وبلاغته عملاً وإنجازاً، لا من حقيقةِ عملِها دليلاً وبرهاناً، وكم هو الفارقُ بين القول والعمل، وبين الصَّمتِ والجدل؟!

والعاقِلُ من قلَّ كلامُهُ وكثُر عملُه، بل إنَّ المؤمن كما قيل لسانُه وراء قلبِه، فإذا أراد أن يتكلَّم بشيء تدبَّره بقلبه ثم أمضاه بلسانه، وأمَّا المنافق فلسانُه أمام قلبه، فإذا همَّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه.

<u>عفواً فلا وقت لدينا</u>

إنَّ مسيرةَ الجهادِ المضنيةُ الشَّاقة لا وقت لها لتعاطي الجدل أو الاستماع إليه، بل أنَّ طريقها الواسعة لتضيقُ من تحمُّل وحَمْلِ المجادلين اللَّجوجين الذين تمَّت خسارتهم قبل أن يُتِمُّوا خَسارة عدوهم!!

---

[1] رواه ابن حبان في صحيحه برقم 2934

[2] أصلها في كتاب يتيمة الدهر:(المراء يهدم المروءة)

[3] اقتضاء العلم والعمل1/ 79

وهكذا قيل: (إذا رأيتَ الرَّجل لجوجاً ممارياً مُعجباً برأيه فقد تمَّت خسارتُه)[1] وهي مقولةٌ يمكن أن نستبطَ منها قاعدة تقول: (كُل مجادلٍ ممارٍ مُعجبٌ برأيه، وما مِن مُعْجَبٍ برأيه إلا كانَ خسراناً)

فهي الخسارةُ إذاً!! الخسارةُ قبل المعركة وقبل ملاقاة العدو وقبل خوض غمار الحرب!!

خسارةٌ سببها أسلحةٌ عضوية أساسُها اللِّسانُ لا السِنان، والفَمُ لا المِدفع، والكلامُ لا الرَّصاص!! وهي أسلحةٌ يراها البعضُ مؤثرةٌ وناجحةٌ وهي كذلك بشرطِ أنْ تكونَ في الخير والوصولِ إليه مالم تصِل إلى المِراء. أمَّا فيما غير ذلك فهي أسلحةُ دمارٍ شاملٍ تأتي على الأخضرِ من الأخلاقِ والسكينةِ والطمأنينة واللِّينِ والقُربِ والتي يجِب أن تكونَ جميعُها ومضاتٌ تشعُ من قلب المجاهدِ ولسانهِ وسلوكه كُلِّه.

وما يَكثرُ الجدَلُ إلاَّ ويَستصْحِبُ معه برهاناً قاطعاً على فراغِ المتجادلين وقلَّةِ نفعهم ورداءة صَنْعَتِهم، فليُقِلُّوا إذاً أو يُكثروا.

حاملوا راية، لا أصحابُ دعاية

أيها الفرسان:

إنكم تحملون رايةً لا يصلُح لحاملها أن يلهو مع اللاهين، أو يَغفل مع الغافلين، أو يُجاري الفارغين، فهي رايةٌ ارتبطت بالجُهد والبذل والعَرقِ والدَّم، ورايةٌ تلكَ أبرزُ ملامِحها لا يُمكن أن تسمَح لمن يستظِلُّ بِظلِّها أن يكونَ صاحِب دعايةٍ يجعلُ من الصَّخبِ وتكويمِ الكلماتِ والجُملِ والعبارات سُلَّماً له نحو المجدِ والعزِّ المزعوميْن، ولا صاحِب هوى كما هو حالُ أهل الجِدال الذَّينَ لم يكُن يوماً جدالهُم انتصارٌ لحقٍ وإنما هو الانتصارُ للهوى .. هوى النَّفس وهوى الرأي، حيثُ يُبخِسونَ الميزان عندما يضعُ الواحِدُ منهم مُتعمِّداً الحقَّ في كفَّه، وهوى النَّفس والانتصار للرأي في كفةٍ أخرى فلا والله لا يكفُّ بعدها حتَّى ترجح كفَّةُ هواه على الحقِّ أيَّما كان ومن أيِّ كائنٍ كان!!

---

[1] قالها بلال بن سعد رحمه الله .إحياء علوم الدين3/117

كما أنَّ هذه الراية والتي يتعاقبُ على شرفِ حملها أجيالٌ من هذه الأمة إلى أن تقوم السَّاعة تأبى أن تكونَ بأيدي مُجادلينَ ممارينَ لأنها بذلكَ تكون خاضعةً لعاملٍ من أهمِ عوامل الهدمِ والتمزيقِ واتباع الأهواء والانقلابِ على أمرِ القيادة وهو ما أخرجَ الخوارج!!

خرجوا على خليفةِ رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- علي بن أبي طالب – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – بعد أن كفَّروهُ ومن معه من كبار الصحابةِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُم-!! ويظهرُ ذلكَ من خِطابه لهم حيث افتتحَهُ بتذكيرهم بالشرارةِ الأولى التي أوصلتهم إلى نارِ الفتنةِ والبغي والخروج على إجماعِ المسلمين وخليفةِ رسول رب العالمين قائلاً: (أيتها العصابة التي أخرجها عداوةُ المِراء واللَّجاجة، وصدَّها عن الحقِ الهوى، وطَمِعَ بها النَّزق وأصبحتْ في الخطبِ العظيم)[1]

وأصلُ نشأتِ هؤلاءِ هو ذلك الرَّجلُ المماري المعترضِ على حكمِ أمين من في السَّماء – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- يوم بَعَثَ عَلِيٌّ بن أبي طَالِبٍ إلى رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- من الْيَمَنِ بِذَهَبَةٍ في أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لم تُحَصَّلْ من تُرَابِهَا فَقَسَمَهَا بين أَرْبَعَةِ نَفَرٍ من أصحابِه، فقال رَجُلٌ من أَصْحَابِهِ كنا نَحْنُ أَحَقَّ بهذا من هَؤُلَاءِ، فَبَلَغَ ذلك النبي –صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- فقال ألا تَأْمَنُونِي وأنا أَمِينُ من في السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً؟! قال فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ نَاشِزُ الْجَبْهَةِ كَثُّ اللِّحْيَةِ مَحْلُوقُ الرَّأْسِ مُشَمَّرُ الإِزَارِ فقال يا رَسُولَ الله اتَّقِ الله !!(وياله من كلمةٍ تجمعُ الجِدالَ كلَّهُ حيثُ الاستدراكُ على حكمِ وقِسمةِ النبي- صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ-) فقال: وَيْلَكَ أو لستُ أَحَقَّ أَهْلِ الأرض أَنْ يَتَّقِيَ الله؟! ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ فقال: خَالِدُ بن الْوَلِيدِ يا رَسُولَ اللَّهِ ألا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فقال: لا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي. قال خَالِدٌ: وَكَمْ من مُصَلٍّ يقول بِلِسَانِهِ ما ليس في قَلْبِهِ فقال –صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- إني لم أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عن قُلُوبِ الناس ولا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ.ثُمَّ نَظَرَ إليه وهو مُقَفٍّ فقال: إنه يَخْرُجُ من ضِئْضِئِ[2] هذا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ الله رَطْبًا لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ (قال أبو سعيد الخدري) أَظُنُّهُ قال لَئِنْ أَدْرَكْتُهُم لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ"[3]

---

[1] الكامل في التاريخ3/ 220

[2] أي من أصله ونسله (لسان العرب)

[3] أصل القصة حديث عند الإمام مسلم برقم 1046

إنَّ ذهابي إلى هذا المنحى البعيدِ في تصوير خطورةِ الجِدال يكمنُ من حرصي على نبذِ هذه الصِّفةِ المزعجةِ المنفِّرةِ المدمِّرة من بين صفوفِ المجاهدين ومن سلوكِهم وأخلاقِهم وتعاملاتِهم، فكم نالت هذه الصفة من السَّاحةِ الجهادية وكم اكتوت السَّاحةُ بنارِها حتى وصلت إلى حدٍ كادَت أن تُحرقَ أرضاً لما يَنبُت زرعُها بعد، وذلك حين وقعَ الجِدال بين أبناءِ البيتِ الواحد وارتفعت أصواتهم، ونزغ الشيطانُ بينهم، بل واتبعوا خطواته حتى كادَ أن يُحدثَ –بل أحدثَ أحياناً– اقتالاً بين بعضِ من خرج لنُصرةِ الدِّين ورفعِ الظُّلمِ عن المظلومين حين وقعوا في وحلِ المراءِ والجِدال!!

نظر ابن عمر رضي الله عنهما إلى الكعبةِ يوماً فقال: " مَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ وَلَلْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكَ"[1] ثمَّ تمعَّن معي كيف تهونُ حرمةَ المسلمِ عند أخيهِ المسلم حين يقَعُ كلٌّ منهما في الجدال، ويذهبان معه حيثُ يُريدُ هو الذَّهاب بهما!!

ثم إذا كان النبيُّ – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– يدعوا بالرحمةِ لكلِّ مُتسامحٍ في بيعه وشرائه وطلبِه فيقول:" رَحِمَ الله رَجُلاً سَمْحاً إذا بَاعَ وإذا اشْتَرَى وإذا اقْتَضَى"[2] فكيف بالله إذاً يجِبُ أنت تكون العلاقةُ أبناءِ الصَّفِ الواحد والمسيرةِ والواحدة، ممن يحمِلُون السِّلاح ويُنادون أن حيَّ على الكفاح، ويرنون للوصولَ إلى غايةٍ أسمى مطالبها الفوزُ برضى المولى جلَّ وتعالى؟!

ثُمَّ أليس" الْمُسْلِمُ من سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ من لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ من هَجَرَ ما نهى الله عنه"[3]؟! فأيُ سلامةٍ في الجِدالِ ومن الجِدال؟! وأيُّ هجرةٍ يمكنُ أن تَتَحقق بصدقٍ وكمالٍ وتؤتي أكلها ونتائجها وصاحِبها لم يهجُر كثيراً مما نهى الله عنه ومنها الجدال والمراء واللَّجاجة؟!

إنَّ جيل الجِهادِ جيلُ بناءٍ وعملٍ، والبنَّاءُ المجدُّ إن اشتغل بكثيرِ الكلامِ مما لا فائدة معه تأخرَ بناءه، ولربما أنجزَ بناءً غير متقنٍ لأنه وقتها كان مشغولاً بالقيل والقال وكثرةِ الجِدال فخلط الجيَّد بالرديئ، ولربما تعمَّد خلطَ الموادِ بما يوافقُ أهواءه لا بما يُصلح بِناءه!! وغيظاً لمن خالفهُ، لا إرضاءً لمن خَلقهُ!! فما أسرع أن ينهار مثل هذا البناء الوهِن على رأسِ قاطنيه وساكنيه.

---

[1] رواه ابن حبان في صحيحه برقم 5736 وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط إسناده قوي
[2] رواه البخاري برقم 1970
[3] رواه البخاري برقم 10

الجَرَبُ المُعدي

هذا والجِدالُ بين اثنين أو ثلاثة من عامةِ السَّالكين لهذا الطريق، فما بالُك إذاً لو الكان الجدالُ بين القيادةِ أمام القاعدة؟!

إنَّه الوباء الذي ما إن يقع حتى يفشو وينتشرُ انتشار النارِ في الهشيم، ويأتي على كُل بناءٍ تربويٍ غُرس في نفوسِ الأتباع!! فما بعدهُ إلا الإحباطُ في نفوسهم، والاهتزاز في ثقتهم، والارتباكُ في أدائهم، والضعف في التزامهم أمام مسئولياتهم وواجباتهم المناطةُ بهم!!

ويُمكنكَ أن تتصوَّرمعي بيتاً يُصبحُ فيه الأبناء ويُضحون ويُمسون على نزاعٍ وجدالٍ بين الوالدين، كيف تكونُ نفوسهم وكيف يكونُ سلوكهم ومِن ثمَّ نشأتهم؟!

ولعلَّه لا يُدهشكَ الآن حكمُ صفوان بن مِحرز[1] على أصحابِه عندما رآهم يتجادلون فقام عنهم ونفض ثيابه وقال:(إنما أنتم جرب..إنما أنتم جرب)[2] وأيُّ أثرٍ للجربِ أخطرُ وأعظمُ من أنَّه يعدي؟! وهذا هو ما تنقلهُ القيادةُ من عدوى لأفرادها عندما تقعُ في الجدلِ أمامهم – وهي بالتالي ليست دعوة للجدلِ والمماراةِ من ورائهم، بل تنبيهٌ على خطورةِ الأمر في كلا الحالتين– وهي فتنةٌ لا تحمدُ عقباها، وحماقةٌ لا يُفهم معناها، وكما قال ابن مسعودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –: (المراء لا تعقل حكمته ولا تؤمن فتنته)[3]. ثم يأتي دورُ أبليس عندما نفتحُ له بأيدينا نافِذةً يتسللُ من خلالها بعدما أيسَ الدخول من الباب فدخل من نافذةِ "وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ"[4] فيكونُ التنازُع ومن ثمَّ الخصومة وبعدها القطيعة ولك أن تتخيل قيادةً هذا حال بيتِها وحال أفراده!!

وقد نبَّه على ذلك عبد الله بن حسن رحمه الله يوم يقول: "المراء يفسد الصداقة القديمة، ويُحل العقدة الوثيقة، وأقل ما فيه أن تكون المغالبة، والمغالبة أمتن أسباب القطيعة"[5]

لا تركننَّ إلى المِراءِ فإنَّهُ ... سببٌ لكلِّ تنافرٍ وتشاوسِ[1]

1المازني البصري العابد أحد الأعلام حدث عن أبي موسى الأشعري وعمران بن حصين وحكيم بن حزام وابن عمر– سير أعلام النبلاء4/286

الصمت واللسان1/ [2]100

نفس المصدر[3]

[4] رواه مسلم برقم2812 وتمامه إنَّ الشَّيْطَانَ قد أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ

جامع العلوم والحكم 2/ [5]99

ولكن للبيتِ من يحميه

وهنا تبرُزُ قياداتُ الصِّدقِ والأمانة والإيمان والتي بلغت حقيقته كما يُعرِّفها عبد الله بن عمرو – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – بقوله:(لن يُصيبَ رَجُلٌ حَقيقةَ الإيمانِ حتى يترُكَ المِراء وهو يعلمُ أنَّه صادق)[2]

تبرُزُ في مواقفها وتصرفاتها بعدما هالها ما رأت وسمعت، فتُغَلِّبُ جانب الخوفِ على العمل والطريق والمصلحةِ العامة على جانبِ المصلحة الخاصة، فتدعُ المراء رغم علمِها بالحقِّ الذي معها، وتمضي بهدوءٍ وسكينةٍ تقودُ القافلةَ وتُمسِكُ بدفةِ القيادةِ من أن تنحرفَ، تاركةً صدى صيحاتِ الجِدال يعودُ خاوياً على أصحابِه حيثُ لا خير فيه، فتنال بذلك بيتاً في ربضِ الجنَّة حيث زعيمُه محمدٌ – صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– فهو:"زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كان مُحِقًّا"[3]. وتنال منزِلةً في نفوس الأفرادِ الذين خرجوا ليسمعُوا خيراً لا ليسمعوا شرَّاً.

والصَّمت في بابِ الجدالِ حكمةٌ وقليلٌ فاعلُه فقد قالها الحكيمُ يوماً لابنهِ: (يابنيَّ الصمتُ حكمةٌ وقليلٌ فاعلُه) وقال له أيضاً: (يا بُنَيَّ من لا يملكْ لسانَهُ يَندَم ومن يُكْثِرُ المِراء يُشتم)[4]

ولقد شُتِمَ الجهادُ من أعدائه وما زال وهذا أمرٌ طبيعي..

ما يَضيرُ البحرَ أمسَى زَاخِراً   أنْ رَمى فيه غلامٌ بحجَرْ[5]

ولكن أن يُشتَمَ ويُنال مِنه بسببِ أولئك اللَّجوجين من المنضوين تحت لوائِه فهذا ما لا نرضاه ولا نقبلُه. ومع هذا فمازلنا نتلطَّفُ بهم ونتأنَّى حتى يَدَعوه، وعُذرنا لهم أنهم..

ما فطِنوا أنَّ الجِدال:

- إثمٌ ووزر

---

[1] ديوان عبد الله الخفاجي 154
[2] الزهد للأمام أحمد 1/ 366
[3] رواه أبوداوود وحسنه الألباني
[4] الزهد للأمام أحمد 1/ 373
[5] ديوان الأخطل

- خسارةٌ وغُبن
- فُرقةٌ وجفاء
- ظُلمَةٌ وفِتنة
- هوىً لا خير فيه
- صفةٌ لا تُعقَلُ حِكمتُها ولا يُرجى نفعُها

ونسوا أن في تركِه:

- تحقيقٌ للإيمان
- وراحةٌ للقلب
- وجمعٌ للكلمةِ
- وبقاءٌ للألفةِ
- واستثمارٌ للوقت
- إنجازٌ للعمل

أيُها الفُرسان:

لنتدبَّر معاً حكمةَ هذا الحديثِ ولندع جانباً التَّشدُد في الحُكم عليه - فمعناه صحيح وشواهده صحيحة ويبقى أنَّه في باب فضائلِ الأعمال- لنستشعِر معاً خطورةَ الأمر وفداحةِ النتيجة وعاقبة تلك الصفة..

فعن أبي الدَّرْدَاءِ وأَبِي أُمَامَةَ ووَاثِلَةُ بن الأَسْقَعِ وأَنَسُ بن مَالِكٍ قالوا: خَرَجَ عَلَيْنَا رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- يَوْمًا وَنَحْنُ نَتَمَارَى في شَيْءٍ من أَمْرِ الدِّينِ فَغَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا لم يَغْضَبْ مثله ثُمَّ انْتَهَرَنَا فقال: مَهْلاً يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ إنما هَلَكَ من كان قَبْلَكُمْ بهذا، أخَذُوا الْمِرَاءَ لِقِلَّةِ خَيْرِهِ.

ذَرُوا الْمِرَاءَ فإن الْمُؤْمِنَ لا يُمَارِي، ذَرُوا الْمِرَاءَ فإن الْمُمَارِيَ قد تَمَّتْ خَسَارَتُهُ، ذَرُوا الْمِرَاءَ فَكَفَاكَ إِثْمًا أَنْ لا تَزَالَ مُمَارِيًا، ذَرُوا الْمِرَاءَ فإن الْمُمَارِيَ لا أَشْفَعُ له يوم الْقِيَامَةِ، ذَرُوا الْمِرَاءَ فَأَنَا زَعِيمٌ بِثَلاثِ آيَاتٍ في الْجَنَّةِ في رِبَاضِهَا وَوَسَطِهَا وَأَعْلاهَا لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وهو صَادِقٌ، ذَرُوا الْمِرَاءَ فإن أَوَّلَ ما نَهَانِي عنه رَبِّي بَعْدَ

عِبَادَةِ الأَوْثَانِ الْمِرَاءُ وَشُرْبُ الْخَمْرِ، ذَرُوا الْمِرَاءَ فإن الشَّيْطَانَ قد يَئِسَ أَنْ يُعْبَدَ وَلَكِنَّهُ قد رضي مِنْكُمْ بِالتَّحْرِيشِ وهو الْمِرَاءُ، ذَرُوا الْمِرَاءَ فإن بني إِسْرَائِيلَ افْتَرَقُوا على إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَالنَّصَارَى على ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كلهم على الضَّلالَةِ إلا السَّوَادَ الأَعْظَمَ قالوا: يا رَسُولَ الله وَمَنِ السَّوَادُ الأَعْظَمُ؟! قال من كان على ما أنا عليه وَأَصْحَابِي، من لم يُمَارِ في دِينِ اللَّهِ وَمَنْ لم يُكَفِّرْ أَحَدًا من أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِذَنْبٍ غُفِرَ له ثُمَّ قال: إِنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنِ الْغُرَبَاءُ؟! قال الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إذا فَسَدَ الناس، وَلا يُمَارُونَ في دِينِ اللَّهِ، وَلا يُكَفِّرُونَ أَحَدًا من أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِذَنْبٍ"[1]

وأخيراً أيها الفارس:

نحنُ لا نمنعُ النِّقاش البنَّاء فهو يُثري الرأي ويُنضِجُ الفكرة، وإنَّما نمقُتُ الجِدال الذي يُفسِدُ الرأي ويُعمي عن الحق.

والآن: دعني أضع يدي على كتفيك، وأسيرُ بك بضع خُطواتٍ بعيداً عمَّن حولنا لتكونَ نصيحتي بعيداً عن الآخرين، ثمَّ أهمس بأذنيكَ همسة صادقة، وهي ليست سِراً فلك أن تهمس بها في أُذُنِ من تُحب:

ودعِ المراء ولا تُطع أهل الهوى … فالحقُّ في أيدي الرجالِ المُنصفة[2]

(دع المِراءَ والجدل فإنه لن يَعْجَزَ أَحَدُ رجُلين: رجلٌ هو أعلمُ منك فكيف تُعادي وتُجادل من هو أعلمُ منك؟! ورجلٌ أنت أعلمُ منه، فكيف تعادي وتجادل من أنت أعلم منه ولا يُطيعك)؟!

الوصية السابعة عشر

[1] رواه الطبراني في الكبير برقم 7658وفي سنده ضعف

[2] ديوان عبد الله الخفجي 154

إياك وتتبع العثرات

إنَّ من حرمانِ الله للعبدِ أن يُشغله عن عيوبِ نفسِهِ بعيوب الآخرين، وبمساوئِهم عن مساوئه، وعن إكمالِ فضائلهِ بالتَّنقيصِ منهم، وهذا بلا شك إهمالٌ من الله تعالى لهذا الصِّنفِ من البشر، حيث أُشربت نفوسهُم الغرور بصدِّهم عن عيوب أنفسِهم وتقاضيهم عنها!! بل قُل بمحاولتهم اقناعَ أنفُسِهم بأنهم فوقَ العيوبِ والنواقِص، وفوق الأخطاءِ والعثرات، والزَّلاتِ والسلبيات!!.

إنَّه صِنفٌ عجيبٌ إذ كيف يُبصِرُ القَذاة[1] في صفات وأخلاقِ وطباعِ إخوانه(وهي أمورٌ لا تُذكرُ لتفاهتها وصِغرها) وينسى الجِذع في صفاته وأخلاقه وطباعِه؟! وهذا ما لفت انتباه النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– وتعجَّب منه حيث يقول: " يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ وَيَنْسَى الْجِذْعَ فِي عَيْنِهِ؟!"[2]

ولا شكَّ أنَّ تتبعُ العثرات صِفَةٌ لا يتَّصفُ بها أحدٌ إلا بسببِ أوساخٍ اجتمعت في قلبِه فجعلتهُ لا يرى إلاَّ القذى، ولو نظُف القلبُ وطَهُرت السَّريرة لرأى الجميل وأظهره، وغضَّ عن القبيحِ وستره، ثمَّ سارَ برفقٍ نحو النصيحةِ والإصلاح.

يقول أبو الحَسَن سريّ –رحمه الله–:(لم أر شيئاً أحبطَ للأعمالِ ولا أفسدَ للقلوب الحانية، ولا أضرَّ بالحكمة، ولا أنجع في هلكة العبدِ، ولا أدومَ للأضرار، ولا أبعد من الاتِّصال، ولا أقرب من المقْتِ، ولا ألزم لمحجَّةِ العُجْبِ والرّياءِ والتزيُّنِ، **من قلَّةِ معرفةِ العبدِ بنفسهِ ونَظَرِهِ في عيوبِ غيره)**[3]

ثمَّ إنَّ هذه صفةٌ بابُها عريضٌ مصراعيهِ، فهو ما إن يُفتح حتى ترى أن تتبُّع عثراتِ الآخرين أبرزُ ما فيه وأظهرُ ما بداخلِه!!

ولا شكَّ أنَّ تتبع العثرات بابُ شرٍ ومدخلُ سوءٍ وطريقٌ لن تكونَ نهايته إلا السُّقوطُ للمُتتبّعِ بما أرادَ أن يُسقط به غيره، ومن حفر حُفرةً لأخيهِ وقع فيها!!

---

[1] وهو ما يقع في العين والماء والشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك. لسان العرب15/ 174

[2] رواه ابن حبان في صحيحه برقم5716 وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط رجاله ثقات

[3] تاريخ دمشق 22/ 111

(قال كعب لابن عباس –رضِيَ اللهُ عنهُما– إنَّ في التوراةِ "مَن حَفَرَ حُفْرَةً لأَخِيْهِ وَقَعَ فِيْهَا" فقال ابن عباس أنا أجِدُ هذا في كتابِ الله: "وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّء إِلاَّ بِأَهْلِهِ"[1])[2]

ولهذا كان النبيُّ – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– يُنادي بأولئك المتظاهرين بإسلامهم مُحذراً "يا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ، ولَمْ يَدْخُلِ الإيمانُ قَلْبَهُ، لا تُؤْذُوا المسْلِمِينَ، ولا تُعَيِّرُوهُمْ، ولا تَطْلُبوا عَثَرَاتِهِمْ ، فإنهُ مَنْ يَطْلُبْ عَوْرَةَ المسْلِمِ، يَطْلُبِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَطْلُبِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، يَفْضَحْهُ ولو في جَوْفِ بَيْتِهِ"[3]

لدينا ما يُشْغِلُنا

لو أننا جميعاً كأفرادٍ فطَنَّا لأنفُسِنا، لوجدنا أنَّ فينا من العيوبِ وعلينا من المآخذِ وبنا من التقصيرِ ما يكفي لِشَغْلِنا عن غيرنا!!

وهذا ينطبِق على مستوى الجماعاتِ أيضاً بل وبشكلٍ أكبر وأهم، إذ أنَّ العمل الإسلامي ومنه الجهادي فيه من العيوب والنواقص والأخطاء والمآخذ – وهي طبيعة أي جهد بشري– القَدْر الذي يَعترِفُ به أهلُهُ قبل غيرهم، ومؤيدوه قبل مُعارضوه، ومُناصروه قبل مُحاربوه!! فبعد ذلك أفلا يَستحِقُّ الوقوف عنده وإصلاحه، بدل التَّصيد هنا وهناك لأخطاءِ هذا الفردِ أوذاك، وهذه الجماعةِ أوتلك؟!

ومَنْ لم يُغمِّضْ عَيْنَهُ عن صَدِيقِهِ وَعَن بَعْضِ مَا فيهِ يَمُتْ وهوَ عَاتِبُ
ومَنْ يَتَتَبَّعْ جَاهِدًا كُل عَثْرَةٍ يَجِدْها ولا يَسْلَم لَهُ الدَّهْرَ صَاحِبُ[4]

وليس عيباً أن نبحثَ عن أخطائِنا لنُصلِحها بل هو الصَّوابُ بعينه، ولكنَّ العيب كلَّ العيبِ أن نرى أخطاءنا فندفنها، ونحفُرُ لأخطاء إخواننا فَنُظهرها!! وهذا مسلكٌ خطيرٌ، نهايتهُ أن يكْتشِف الصَّادقون من أبناءِ العمل وأبناءِ المسيرةِ تلكَ الأخطاء والسلبيات المدفونة فتكون الفضيحة ولكن في البيتِ الواحِدِ والعمَلِ الواحِد والجماعةِ الواحدة "وَمَنْ يَطْلُبِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ"!!

---

[1] فاطر 43
[2] التسهيل لعلوم التنزيل3/ 160
[3] رواه رواه ابن حبان في صحيحه برقم5665 وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط إسناده قوي
[4] كثير عزة

ثمَّ يأتي السؤال على ألسنةِ هؤلاء: لماذا انشغلنا بغيرنا عن أنفُسِنا؟ ومن الذي يتحمَّلُ هذهِ الفضيحة؟ ومن الذي تقعُ عليه تَبِعة المسئولية؟

ثمَّ ما الذي جناهُ الفردُ أوالجماعة من وراءِ هذا الجُهدِ المبذول، والوقت المهدور، والطَّاقةِ المحروقة في تتبُّعِ العثرات؟

أيها الفرسان:

إنَّ مِثلُكُم لا يليقُ بِهِم إظهار العورات، ولا يَجْمُلُ بهم تتبُّع العثرات، وذلك

أولاً:اتِّباعًا للشرع

وثانياً:لأن لديكُم ما يُشغلكُم..

نعم ما يُشغلكم على مستوى أنفسِكُم، فما يضُرُّكم لو اشتغلتم بذُنُوبِكُم – فكُلُنا ذو خطأ- وتأسَّفْتُم على ما شربتموهُ من ماءِ اللَّهو بِذَنُوبِه؟! أليس هو الأولى

ثمَّ لديكم ما يُشغلكُم على مُستوى تأهبكم لعدوِّكم، فلن يكونَ -بِحالٍ مهما كان- أخوكَ أعدى عليك من عدُوِّك

وإذا الحبيبُ أتى بَذنْبٍ واحدٍ جاءَتْ مَحاسِنُهُ بألف شَفيعٍ[1]

كما لن تكون – بحالٍ مهما كان- جماعةٌ تُخالِفُكَ في الطريقةِ أوالأسلوب أوالتَّفكير أشدُّ عداءً لك من عدوٍّ يخالفك في العقيدةِ والفِكر والمنهج، ويتربصُ بك أن تُصيبك دائرةٌ يكونُ محورها ونقطةُ ارتكازها المكان المناسب للانقضاض منها عليك.

فِقه إياس يَكُفُّ الواسطي

[1] ديوان إبن نباته المصري

قال سفيان ين حسين الواسطي: ذكرتُ رجلاً بسوءٍ عند إياس بن معاوية، فنظر في وجهي وقال: أغزوتَ الروم؟! قلتُ: لا، قال: السِّندُ والهندُ والتُرك؟! قلتُ: لا، قال: أفسلِمَ مِنكَ الرُّوم والسِندُ والهِند والتُركُ ولم يَسْلَمْ مِنكَ أخوك المسلِم؟! قال: فلم أَعُد بَعْدَها[1](يعني لذِكر الآخرينَ بسوء وتتبع لعثراتهم)

نعم: بهذا الوضوحِ وبهذه الصَّراحة، فعندما يتحوَّلُ الأمرُ من نُصرةٍ للدينِ ودِفاعٍ عن بيضةِ الإسلامِ وحياضِ المسلمين بعيداً عن المكاسِب الشخصيةِ أو الفِئويةِ أو الحزبية، إلى سباقٍ بين الجماعاتِ والأحزابِ للتسلُّقِ نحو الصَّدارةِ على حسابِ عثراتِ الآخرين وتتبُّعِ زلاتهم، وتصيُّدِ أخطائهم، عِندها يَسْلَمُ السِّندُ والهِندُ والتُركُ والروم وكلُّ أعداءِ الأمة ويربحوا، أما الخسارةُ والهزيمةُ والفَشلُ فتكونُ من نصيبِ من آثرَ التَّصيُدَ بَدلَ الصَّيْدِ، والتَّتبعَ بدل الاتِباع وهي نتيجةٌ مُحتَّمة وسُنةٌ مؤكَّدة "وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ"[2]

أقيلوا ذوي الهيئاتِ عثراتهم

بابٌ من التربيةِ عظيمٌ يفتحُهُ النبيُّ – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– حين يقول:" أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلاَّ الْحُدُودَ"[3]

وأسلوبٌ راقٍ يؤسِّسه عليه الصلاة والسَّلام في التَّعامُلِ مع الآخرين ممن عُرِفَ عنهم الخيرُ والصلاحُ والصِّدق والعمل لهذا الدِّين، بل حتى مع ذوي الأقدار بين الناس من الجاه والشرف والسؤدد ممن اشتهروا بالخير.

وجاء ابن القيِّم – رحِمَهُ الله — ليُبدعَ في واحدةٍ من بدائعِ فوائده معلقاً على الحديثِ:(والظاهِرُ أنَّهم ذوو الأقْدارِ بينَ النَّاسِ من الجاهِ والشرفِ والسؤدُدِ، فإنَّ الله تعالى خَصَّهُم بِنَوعِ تكريمٍ وتفضيلٍ على بَنِي جِنسِهِم، فمن كانَ مِنهُم مَستوراً مَشهوراً بالخير حتَّى كَبَا بِهِ جَوادُه، ونبا عَضب صبرِه، وأُديل عليه

---

[1] البداية والنهاية9/ 336
[2] الأنفال 46
[3] رواه أبوداوود برقم4375 وصححه الألباني

شيطانُه، فلا تُسارِعْ إلى تَأنِيبه وعُقوبَتِه، بل تَقالَّ عثرته مَالم يَكُن حدَّاً من حدود الله، فإنَّه يّتعيَّنُ استيفاؤه من الشريف، كما يَتعيَّنُ أَخذُهُ من الوضيع)[1]

الحُرُّ من حَفِظَ وِدادَ لحظة

نعم أيُها الفارِسُ الحُر: كُن كمن قيلَ فيهِ:

جَاوِرْ عَلِيّاً ولا تَحْفَلْ بِحَادِثَةٍ　　إذا ادَّرَعْتَ فَلا تَسأَلِ عَنِ الأَسَلِ
اسْمٌ حكاهُ المَسَمَّى في الفِعَالِ فَقَدْ　　حازَ العَلِيَّيْنِ من قَولٍ ومن عَمَلِ
فالسَّيِّدُ المَاجِدُ الحُرُّ الكريمُ لَهُ　　كالنَّعْتِ والعَطْفِ والتَّوكِيدِ والبَدَلِ[2]

فليسَ من شِيَمِ الأحرارِ أن يَنسوا الودِ، أو يُنكِروا المعروف، أو يُخوِّنوا الأمين، ونحنُ في ساحةِ العمل الجِهادي بكلِّ فروعِهِ لسنا وحْدنا في الميدان، ولا يُمكِنُ أن ندَّعي ذلك، بل هناك من يعملُ نفس العمل وربُما أكثر!! ويألمُ نفسَ الألم وربَّما أشد!! ويهتَمُّ نفسَ الهمّ وربُما أكبر!! إلاَّ أن يَظهَر لك بالدَّليلِ القاطِعِ من قولهم أو فِعلهم ما يُخالفُ ذلك أو ينفيهِ عنهم.

فهل تعرِفُ من هؤلاءِ الذين أعنيهم والذينَ يُمكِنُ أن يأتي من تُسوِّلُ له نفسُه فيتتَّبعُ عثراتهم ويَتحيَّنُ سَقطاتِهم لحاجةٍ في نفسِه؟؟

إنَّهم إخوانُك الذينَ يُقدِّمون أرواحهم ضريبةً لنُصرةِ هذا الدين بِكلِّ رضىً واطمئنانٍ وحب!!

إنَّهم من كُنتَ تتقلَّبُ في فراشكَ شوقاً لِلّحاقِ بهم ولو لخِدمتهم!!

أنَّهم من هانت عليهم الدُنيا فطاروا إلى الآخرةِ بأقواهم وأفعالهم فصدقوا وصُدِّقوا!!

فأيُ عثرةٍ تطلُب؟! وأيُّ زلةٍ تنتظِر؟! وأيُّ هفوةٍ ترجو؟!

وإليكَ هذه القصة التي تُثبت كيف أن الأحرارَ يحْفظونَ المعروفَ، ويتحيَّنون الفُرُص للوفاءِ ولو كان هذا المعروف قد أسدي لغيرهم مادام يَصُبُّ في خدمة الإسلام والمسلمين.

---

[1] بدائع الفوائد3/ 661

[2] إبن الشرف القيرواني

أورد ابن هشام في سيرته قصة عمرو بن سعدى فقال:

وخَرَجَ في تلك اللَّيلة(يعني التي نزلت فيها قريظة على حكم رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– عمرو بن سُعْدى القُرظي، فمرَّ بحرسِ رسولِ الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– وعليه محمد بن مسلمة تلك الليلة؛ فلمَّا رآه قال: من هذ؟!ا قال: أنا عمرو بن سُعدى – وكان عمرو قد أَبى أن يَدخُلَ مع بني قريظةَ في غَدْرِهِم برسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– وقال: لا أغدُرُ بمحمدٍ أبداً – فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللَّهم لا تحرمني إقالةَ عثراتِ الكِرام، ثم خلى سبيله.[1]

أعثراتِ عُثمان تطلبون؟!!

اجتهاداتٌ اجتهدَ فيها – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – خالفها البعض وتحدثُوا فيها وكانت لا تعدُوا في نظر البعضِ عثراتٌ منه

– رَضِيَ اللهُ عَنْهُ — قالوا:

- حرَّق المصاحف المخالفة لِمُصحفِه!!
- أتمَّ الصلاة في مِنى أيام الحج!!
- أعاد الحكم بن أبي العاص إلى المدينة بعد أن نفاه النبيُ !!
- قرَّب أهله وأعطاهم المناصِب!!

وغيرها من الأمور التي ما ضرَّت منْزِلتَهُ ومقامه وسابقتَه وجهاده وبذله وعطاءه – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ — وصدقَهُ في خلافةِ نبيِّه – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– ولم تكُن تلك الاجتهادات وما تَبِعها من اختلافٍ في وجهات النظر إلاَّ أمراً طبيعياً في طريقة التَّفكير وأسلوبِ العمل والإدارة.

فتكلَّم بعض الصَّحابة في هذه الأمور عن حُسنِ نيَّةٍ أمام الآخرين — وما كلُّ من يستمعُ يكون بالضرورةِ حسنُ النَّية– فتلقَّفها وتتبَّعها مَعشرٌ ممن آمن بلسانِه ولم يُفضِ الإيمان إلى قُلوبِهم، ومارسوا أسلوبَهم الرديئ في التَّشهير والتَّشنيعِ والتَّهويل وطاروا بِها شرقاً وغرباً، ووما زادَ الطِّين بِلَّةً والأمر عِلَّةً تدخُلُ أطرافٍ

---

[1] سيرة ابن هشام 3/ 442

خارجيةٍ لها أجِندتها الخاصة ومصلحتها الظاهرة في تمزيقِ الأمة وشقِّ صفِّها وتعميقِ خلافاتها، فدخل اليهودُ على الخط فدسُّوا رجُلاً منهم ادَّعى الإسلام وهو (عبدالله بن سبأ)[1] وطوَّر الأمر إلى فتنةٍ عارمةٍ أدَّت إلى انقسامِ الصحابةِ واقتتالهم فسالت دماءٌ زكيَّة وذهبت أرواحُ رجالٍ عِظام!!

ولو تتبَّعت معي ما صنعه ابن السَّوداء لعرفتَ كيف أنَّ بعض الأمور متى ما تمَّ التَّعامل معها ببساطةٍ ولم يُنكر على مُتعاطيها ومُمارسيها أفضت إلى ما ستعرفه الآن.

(كان عبد الله بن سبأ يهوديّاً من أهل صنعاء أمُّه سوداء، فأسلم زمان عثمان ثم تنقَّل في بلدان المسلمين يحاولُ ضلالتهُم، فبدأ بالحجاز ثمَّ البصرة ثم الكوفة ثم الشام، فلم يَقْدِر على ما يريدُ عند أحدٍ من أهل الشام، فأخرجوه حتى أتى مِصر فاعتمرَ فيهم فقال لهم فيما يقولُ: لَعَجَبٌ ممن يزعُم أنَّ عيسى يرجع ويُكذِّب بأنّ محمداً يرجع!! وقد قال الله عزّ وجلّ: "إنَّ الذي فرضَ عيكَ القرآنَ لرادُّكَ إلى مَعَاد". فمحمدٌ أحقُّ بالرجوع من عيسى. فقُبِل ذلك عنه وَوَضَعَ لهم الرّجعة – رجعة النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ آخر الزمان– فتكلموا فيها. ثم قالَ لهم بعد ذلك: إنَّه كان ألفُ نبيٍّ ولكلِّ نبيٍّ وصيّ، وكان عليٌّ وصيَّ محمد –صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– ثم قالَ: محمدٌ خاتم الأنبياء وعليٌّ خاتم الأوصياء. ثم قال بعد ذلك: من أظلمُ ممن لم يُجز وصيَّة رسول الله –صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ –ووثب على وصيّ رسول الله –صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ – وتناول أمر الأمّة؟! ثم قال لهم بعد ذلك: إنَّ عثمان أخذها بغير حقّ وهذا وصيُّ رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ فانهضوا في هذا الأمر فحرِّكوه وابدءوا بالطَّعنِ على أُمرائِكُم وأظهروا الأمرَ بالمعروف والنَّهي عن المنكر تستميلوا النَّاس وادعوهُم إلى هذا الأمر)[2]

إنَّها مداخِلُ الشيطانِ وفُنونه وأساليبَه..

فباسمِ المصلحةِ تكونُ المفْسدة!!

وباسم المعروفِ يكونُ المنكر!!

وباسمِ الإنكارِ يكونُ الدَّمار!!

عَبْدُ الله بْنُ سَبَأٍ: من غلاة الزَّنَادقة ، ضالّ مضلّ، أحسب أن عليّاً حرقه بالنار، وزعم أن القرآن جزء من تسعة أجزاء، وعلمه عند علي، فنفاه علي بعدما همَّ به، انتهى.

قال ابن عساكر في(تاريخه) [1]

من اليمن وكان يهودياً، فأظهر الإسلام، وطاف بلاد المسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة، ويدخل بينهم الشر[لسان الميزان3/358]

تاريخ الطبري2/ 647[2]

وباسم البِناءِ يكونُ الهدم!!

وباسمِ التَّيقظِ يكونُ التَّتبُع!!

ثمَّ يُكمل الطبريُ في تاريخِه عن هذه الفتنةِ الدَّاهية:

(وبثَّ دُعاته – يعني ابن سبأ– وكاتب من استفسَدَ في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السِّرِّ إلى ما عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلوا يكتبون إلى الأمصارِ بُكتب يضعونها في عُيوب ولاتهم، ويُكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مِصر منهم إلى مِصرٍ آخر بما يصنعون، فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينةَ وأوسعوا الأرضَ إذاعةً، وهم يريدون غير ما يُظهرون ويُسرون غير ما يُبدون فيقولُ أهلُ كل مِصر: إنَّا لفي عافيةٍ مما ابتُلي به هؤلاء إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميعِ الأمصار فقالوا: إنا لفي عافية مما في النار)[1]

يقول الشيخ رشيد رضا مُتعجِباً:

"وإنا لا ندري السبب الذي حمل ابن السوداء على نشر هذه الدعاية ضد عثمان وتحزبه لعلي بن أبي طالب؟! وإن الإنسان ليعجبُ من ارتحال هذا الرَّجل من مِصرٍ إلى مِصر واحتماله المشقات واختلاقه المذاهب وحض الناس على بث الدعوة إلا إذا كان قد أراد بذلك هدم الإسلام وحدوث الفتن والثورات..[2]

وسارت الأمورُ على هذا النَّحو المتوتِّر، والوتيرةِ الحادَّة، والطريقةِ الفاسِدة حتَّى جاء يومُ الجريمةِ ويومُ الفاجعة الفادحة لترى العجَبَ العُجاب مما تصنعُه شرارةُ تتبُّع العثرات وتشويهِ الاجتهادات وتهويلِ الأخطاء.

حيثُ قام القوم بحصارِ البيت (فأقبل عبد الله بن سلام حتى قام على بابِ الدار ينهاهم عن قتله وقال: يا قوم لا تسلُّوا سيف الله عليكم، فوالله إن سللتُموه لا تُغمدوه. ويلكم! إنَّ سلطانكم اليوم يقوم بالدُّرَّة فإن قتلتموه لا يقوم إلا بالسيف. ويلكم! إنَّ مدينتكم محفوفة بملائكة الله والله لئن قتلتموه لتتركنَّها فقالوا: يا ابن اليهودية وما أنت وهذا؟! فرجع عنهم.

---

[1] نفس المصدر السابق

[2] سيرة عثمان بن عفان1/ 127

قالوا: وكانَ آخِرُ من دخل عليه – أي عثمان – ممن رجع إلى القوم محمد بن أبي بكر فقال له عثمان: ويلك! أعلى الله تغضب! هل لي إليك جُرمٌ إلاَّ حقَّه أخذتُه منك! فنكل ورجع، فلما خرج محمد بن أبي بكر وعرفوا انكساره ثار قتيرة وسودان ابن حمران السّكونيّان والغافقيُّ فضربه الغافقيُّ بحديدة معه وضربَ المصحف برجلِهِ فاستدار المصحف فاستقرَّ بين يديهِ – رضِيَ اللهُ عنهُ–وسالت عليه الدِّماء وجاء سودان بن حمران ليضربه فانكبَّت عليه نائلة ابنة الفرافصة واتَّقت السيف بيدِها فتعمَّدها ونَفَحَ أصابعها فأطنَّ أصابعَ يدها وولَّت فغمز أوراكها، وضرب عثمان فقتله)[1]

ولم يكتفوا بذلك حتى قام (عمرو بن الحمق فوثب علي صدره وبه رَمَقٌ فطعنه تسع طعنات قال: فأمَّا ثلاثٌ منها فإني طعنتهن إياه لله تعالي!! وأمَّا سِتٌّ فَلِمَا كَانَ في صَدْرِي عَلَيْهِ!! (وهكذا تفعلُ الصُّدور إذا غلت بحقدها)

وأرادوا قطع رأسِهِ فوقعت نائلةُ عليه وأم البنين فصحن وضربن الوجوه فقال ابن عديس اتركوه وأقبل عمير بن ضابيء فوثب عليه فكسر ضلعا من أضلاعه)[2]

وياليت الأمر وقف عندَّ هذا الحدِّ من القتلِ والبترِ والكسرِ والتَّمزيق، بل أنَّهم طاردوا حتى جسدهُ الشريف من أن يُدفن في مقابر المسلمين، بل وقعدَ له بعضُهم في الطريق ورجموا سريره بالحجارة!!

(عن عبدالله بن ساعدة قال لبث عثمان بعد ما قتل ليلتين لا يستطيعون دفنه ثم حمله أربعة حكيم بن حزام وجبير بن مطعم ونيار بن مكرم وأبو جهم بن حذيفة، فلما وضع ليصلى عليه جاء نفرٌ من الأنصار يمنعونهم الصلاة عليه فيهم أسلم بن أوس بن بجرة الساعدي وأبو حية المازني في عدة ومنعوهم أن يدفن بالبقيع فقال: أبو جهم ادفنوه فقد صلىَّ الله عليه وملائكته، فقالوا: لا والله لا يُدفنُ في مقابر المسلمين أبدا فدفنوه في حش[3] كوكب!!!)[4]

إنَّه عُثمان:

---

[1] تاريخ الطبري2/ 676

[2] الكامل في التاريخ3/ 68

[3] الحش بفتح الحاء وضمها البستان وهو أيضا المخرج لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين والجمع حشوش [مختار الصحاح]

[4] تاريخ الطبري2/ 668

- ذو النورين الذي قالَ عنهُ النَّبي بعد أنْ زوَّجَهُ ابنتهُ رقية فتوفيت عِنْدَهُ ثمّ أُم كُلثوم فتوفيت عنده قَالَ: "لَو كَانَتْ عِندي ثَالثةً لزَوجُتُها لعثمان"[1]
- عثمان الذي جاءَ إلى النَّبِي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- بِأَلفِ دينارٍ حِينَ جَهَّزَ جيشَ العُسرةِ فَفَرَّغَها في حِجْرِ النَّبي فَجَعَلَ النَّبيُّ يُقَلِّبُها ويقولُ: "مَا ضَرَّ عُثْمانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ هَذا اليومِ (قالها مِرَاراً)"[2]
- عثمان الذي قال بحقِّه النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- "ألا أَسْتَحِي من رَجُلٍ تَسْتَحِي منه الْمَلائِكَةُ"[3]
- وقال عنهُ: "إِنَّ عُثْمَانَ رَجُلٌ حَيِيٌّ"[4]
- وقال:"من يَحْفِرْ بِئْرَ رُومَةَ فَلَهُ الْجَنَّةُ فَحَفَرَهَا عُثْمَانُ"[5]
- وقال عندما استأذن عليه:"افْتَحْ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ على بَلْوَى تَكُونُ"[6]

هكذا كان عُثمان عند نبيِّك – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- وهكذا كان عطاؤه لهذا الدِّين وتلك كانت النِّهاية والتي بدايَتُها تتبُّع العثرات وتهويلُ الأخطاء وحَرْفِ الأمورِ عن مسارِها الطبيعي، فهل يأمنِ المخلصون اليوم حين يتكلَّمون عن الأخطاء أو يعترضونَ على بعضِ التَّصرفاتِ من إخوانِهم في العملِ أو إعتراضهم على عملِ وسياساتِ الجماعاتِ الأخرى أمام الملإِ من أن يتلقفها معشرٌ من أولئكَ الذين أسلموا بألسنتهم ولم يدخل الإيمان قلوبهم فينتجُ عن ذلك الفضائح والفدائح والعظائم من الأمور المهلكة المدمِّرة؟! لا لن يأمن أحدٌ من ذلك فالفِتنُ إذا انطلقت شرارتُها صعُبَ السَّيطرة عليها، فتُحرق بعد ذلك من أشعلها ومن أُشعِلت عليه.

---

[1] الإصابة في تمييز الصحابة5/ 185
[2] رواه الحاكم في مستدركه برقم4553 وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه
[3] رواه مسلم برقم 2401
[4] رواه مسلم برقم 2402
[5] رواه البخاري [باب مناقب عثمان رضي الله عنه]
[6] رواه البخاري برقم 3471

فاحذر أيها الفارس فإنَّ تتبع العثرات سببها لو تجرَّأ صاحِبُها أن يُجيب لقالَ:

وأمَّا سِتٌ فَلِمَا كَانَ في صَدْرِي عَلَيْهِ!

الوصية الثامنة عشر

اصبر على محنِ الطريق

"الم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ "[1]

أيُها الفارِس!

إنَّكَ في طريقٍ لو صارحتُك لقُلتُ: إنَّهُ طريقُ الابتِلاء..

ولو جاملتُكَ لأخفف عنكَ لقُلتُ: إنَّه طريقٌ لا بدَّ فيه من ابتلاء!!

ولأن أكون صريحاً معكَ أحبُّ إليَّ من أن أُجامِلك، فما كُنتُ لأتعامل بها في البداية -أعني الصَّراحة- وأتجاوزها في النَّهاية فالعبرةُ بالخواتيم.

نعم أيُها الفارس:

إنَّه طريق الابتلاءِ هذا الذي تسيرُ فيه، ابتلاءٌ بالنَّفسِ والنَّفيس، وابتلاءٌ بالغالي والرَّخيص، وابتلاءٌ بالقريبِ والبعيد ومن القريبِ والبعيد..

---

[1] العنكبوت1-3

ابتلاءٌ مُستمرٌ ومُتجدد حتى يعلم الله والخبيثَ من الطَّيب، والصادقَ من الكاذب، والجادَّ من الهازل، والثَّابت من المتأرجح.

"ما كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ"[1]

(انه ليس من شأنه تعالى أن يترك المؤمنينَ على ما هُم عليه، فيهم المؤمن الصادقُ في إيمانه, والكاذبُ فيه وهو المنافق. بل لا بُدَّ من الابتلاء بالتكاليفِ الشَّاقة منها كالجهاد والهِجرةِ والصلاة والزكاة, وغير الشَّاقة من سائر العباداتِ حتى يَمِيْزَ المؤمن الصادق وهو الطَّيب الروح, من المؤمن الكاذب وهو المنافق الخبيث الروح)[2]

ولقد أدرك الصَّحابةُ – رَضِيَ اللهُ عنْهُم– هذا الأمر وعايَشوه حقيقةً واقعة، وسُنَّةً مُتحققة فما كانوا يسألونَ النَّبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– عنِ البلاء لأنَّهم عرفوهُ وذاقوه، وإنَّما كانوا يسألونَهُ عن أشدِّ الناسِ بلاءً!! فكان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُجيبهم بما يؤكدُ لهم هذا الأمر ويُرسِّخه في نفوسهم فيقول: "الأنبياءُ، ثمَّ الأَمْثَلُ فالأمثلُ"[3] ثُمَّ لا يدعهم عليه الصَّلاةُ والسلامُ يَنفضُّوا حتى يبين لهم ما يكونُ أثرهُ بعد ذلك على إيمانِهم وعملهم وسُلوكهم فيقولُ:" يُبتلى العبدُ على حَسَبِ دينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ بالعبدِ حتى يَمْشِيَ على الأرضِ وما عليه خَطِيئةٌ".[4]

والنَّتيجةُ العملية التي يريد الوصل إليها – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– هي أن يتعامل المؤمن مع البلاءِ بصفتِه القدرية والتي تستوجبُ التَّسليم التَّام لله تعالى "فَمَنْ رَضِيَ، فَلَهُ الرِّضَا. وَمَنْ سَخِطَ، فَلَهُ السُّخْطُ".[5]

تجري الأُمورُ على حُكمِ القضاءِ وفي   طيِّ الحوادِثِ محبوبٌ ومَكروه
فرُبَّما سرَّني ما بِتُّ أحذرُهُ   ورُبَّما ساءَني ما بِتُّ أَرجُوه[6]

---

[1] آل عمران 179
[2] أيسر التفاسير1/ 415
[3] رواه ابن حبان في صحيحه برقم 2894
[4] نفس المصدر
[5] والحديث بتمامه عند ابن ماجه برقم 4118 وحسنه الألباني
[6] ديوان الحكم بن أبي الصلت

إنَّ السَّالك لهذا الطريقِ لا بدَّ وأن يُوطِّن نفسهُ على المكارِهِ والشَّدائد، والمصاعِب والمتاعِب، وأن يرتدي ثوب اليقين ليتَّقي به حرارة البلاء.

(فمن قال: آمنَّا امتحنه الربُّ عز وجل وابتلاه وألبسه الابتلاء والاختبار لِيَبِيْنَ الصَّادقُ من الكاذبِ، ومَن لمَ يَقُل آمنَّا فلا يَحْسَب أنَّه يَسْبقُ الربَّ لتَجرُبتِهِ فإنَّ أحداً لن يُعْجِزَ اللهَ تعالى)1

وألوانُ البلاءِ تتنوَّعُ في هذا الطَّريقِ الطويلِ الشَّاق، فتارةً تكونُ في الجسدِ من كسرٍ أو بترٍ أو قتل، وتارةً تكونُ في الحُريَّةِ عند الأسرِ أو النَّفي، وتارةً تكونُ في النتيجةِ حين الهزيمةِ على يدِ العدو، فهي ألوانٌ سُبحان من يُصرِّفها في عباده ليبلو صبرهم، ويُظهرُ جواهرهم!!

وفي المحصِّلة يقول الله عزَّ وجل في الحديث القُدسي: "إني إذا ابْتَلَيْتُ عَبْداً من عبادي مُؤْمِناً فحمدني على ما ابْتَلَيْتُهُ فإنه يَقُومُ من مَضْجَعِهِ ذلك كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا" وَيَقُولُ الرَبُّ عز وجل:"أنا قَيَّدْتُ عبدي وَابْتَلَيْتُهُ وَأَجْرُوا له كما كُنْتُمْ تُجْرُونَ له"2

فدونكم أيُها الفرسان! فإنَّه طريق المحنُ والفِتنُ والابتلاءاتِ هذا الذي تسيرونَ فيه، وهو أيضاً طريقُ النَّصر والعِزةِ والشَّهادةِ فاصبِروا وصابِروا ورابطوا واسألوا الله الثَّبات، فلستُم أولاً ولستُم آخِراً، فقد سار على هذا الدَّربِ من عرفتُم من إخوانكم فمنهُم من قضى نحبَهُ ومنم من ينتظِر ومابدَّلوا تبديلا، وسار على هذا الدَّرب من لم تَعرفوا من إخوانِكم صحابةً وتابعين فلا تلْفِتوا إلى الوراء ولا تغْفلوا ساعة.

تنافُسُ الكِبار

تَعِبَ أحدُ الصالحين ذات ليلةٍ من القيامِ فضربَ رجله بعصا قائلاً لها: ويحكِ أيظُنُّ أصحابُ رسول اللهِ – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– أن يستأثِروا بالجنَّة؟! والله ليعلمُنَّ أن قد خلَّفوا رجالاً بعدهم، ثمَّ قام يشْتدُّ عابِداً ومُجاهدا.

الفوائد1/ 208[1]

رواه أحمد برقم 17158 وقال هو صحيح[2]

فلنُردِّد نحنُ كذلك بلِسانِ المنافسةِ والمسابقةِ: أيظُنُّ من سبقنا من إخوانِنا ممن ساروا في هذا الطَّريق ولاقوا في سبيلهِ ما لاقوا أن يستأثِروا بالجنَّة؟! والله ليعلمُنَّ أنْ قد خلَّفوا بعدهم إخواناً رجالاً صدقوا ما تعاهدوا معهم عليه، ولنشتدَّ عابِدينَ مجاهدين صابرين.

ولنُردِّد بلسانٍ واحد:

سَتَعلمُ أُمتُنا أنَّنا ركِبنا الخطوبَ هياماً بها
فإن نحنُ فُزنا فيا طالما تَذِلُّ المنايا لِطُـــلاّ□□بها
وإنْ نلْقَ حتْفاً فقدْ قُدِّمت كُؤوسُ المنايا لِشُرَّابِها

إنَّ البلاء سُنةٌ جارية، وحكمة ربانية ماضية لتُصقل النُّفوس، وتكشف المعادن، وتنْفي الخبيثُ من المندَّسين في الصَّف "فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ "[1]

فلا بدَّ أن تعلم أيُها الفارس وواجِبٌ عليك أن تعلم أنَّ ما أنت فيه من هجرةٍ وجهادٍ إنَّما هو خالِص فضل الله عليك، وأنَّ ما يُصيبك من بلاءٍ إنما هو عربونٌ تُبرهنُ فيه على صِدقكَ وإخلاصك لله ربك، فلا تقِفنَّ في وسطِ الطَّريقِ وقد قطعْتَ في هذه المسيرةِ شوطاً لتطلُبَ من الله ثمن جهادِكَ تمُنُّ عليهِ وتستبطئُ المكافأة على ما نالكَ وأصابكَ، فإنَّ الله لا يَنالُه من جهادِك شيء، وليس في حاجةٍ إلى جُهدِ بشرٍ ضعيفٍ هزيل "وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ"[2] وإنَّما هو فضلٌ من الله أن يُعينكَ وأن يَستخلِفك وأن يأجُركَ " وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ"[3]

---

[1] العنكبوت 3
[2] العنكبوت 6
[3] العنكبوت 7

أيُها الفارسُ!

كان البلاءُ ولا زال يُطاردُ الصَّالحين ويُلاحقهم ويتربَّصُ بهم، ولا زالوا يلاقونه بمزيدٍ من الصَّبر والرِّضا؛ ولذلك فما زال الله يحُفُّهم، ويحتفي بهم، ويرضى عنهم. فهم بقيَّته في الأرض "فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ"[1]

"إنَّ الله إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ"[2] والشِباك التي ينصِبُها البلاءُ لمن اصطفاهم اللهُ واختارهم وارتضاهم أحباباً له كثيرةٌ ومتنوعة يجملها صاحِبُ الظلالِ في صورةٍ فريدةٍ فيقول:

(إنَّ الإيمان ليس كلمةً تقال إنَّما هو حقيقةٌ ذات تكاليف، وأمانةٌ ذات أعباء، وجهادٌ يحتاجُ إلى صبر، وجهدٌ يحتاجُ إلى احتمال...

إنَّ الإيمان أمانةُ الله في الأرض لا يحملُها إلا من هم لها أهلٌ، وفيهم على حملِها قدرةٌ، وفي قلوبهم تجردٌ لها وإخلاص.

وإلاَّ الذين يؤثرونها على الراحةِ والدِّعة، وعلى الأمن والسلامة، وعلى المتاع والإغراء. وإنها لأمانة الخلافة في الأرض، وقيادة النَّاسِ إلى طريق الله، وتحقيق كلمته في عالم الحياة. فهي أمانة كريمة، وهي أمانة ثقيلة، وهي من أمر الله يضطلع بها الناس، ومن ثمَّ تحتاج إلى طرازٍ خاصٍ يصبِرُ على الابتلاء.

ومن الفِتنةِ:

1- أن يتعرَّض المؤمن للأذى من الباطل وأهله، ثمَّ لا يجدُ النصير الذي يُسانده ويدافع عنه، ولا يملكُ النُّصرة لنفسه ولا المنَعة، ولا يجدُ القوة التي يواجهُ بها الطُّغيان. وهذه هي الصُّورة البارزة للفتنة المعهودة في الذِّهن حين تُذكر الفتنة. ولكنها ليست أعنف صور الفِتنة. فهناك فتنٌ كثيرةٌ في صورٍ شتَّى، ربما كانت أمرُّ وأدهى.

---

[1] آل عمران 195

[2] رواه الترمذي برقم 4031 وقال الألباني حن صحيح

2- هناك فتنةُ الأهل والأحبَّاء الذين يَخشى عليهم أن يُصيبهم الأذى بسببه، وهو لا يملكُ عنهم دفعاً. وقد يهتِفونَ به ليُسالم أو ليسْتسلِم، ينادونه باسمِ الحبِّ والقرابة، اتقاء الله في الرَّحم التي يُعرِّضُها للأذى أو الهلاكِ.

3- وهناك فتنةُ إقبال الدنيا على المبطلين، ورؤية النَّاس لهم ناجحينَ مرموقينَ، تهتفُ لهم الدنيا وتُصفِّق له الجماهير، وتتحطَّم في طريقهم العوائق، وتُساغُ لهم الأمجاد، وتصفو لهم الحياة، وهو مهملٌ مُنكرٌ، لا يحسُّ به أحدٌ، ولا يُحامي عنه أحد، ولا يشعرُ بقيمةِ الحقِّ الذي معه إلاَّ القليلون من أمثالِه الذين لا يملكون من أمر الحياةِ شيئاً.

4- وهناك فتنةُ الغربةِ في البيئةِ والاستيحاشُ في العقيدة، حين ينظرُ المؤمن فيرى كلَّ ما حوله وكل من حوله غارقاً في تيَّارِ الضلالةِ، وهو وحدهُ موحشٌ غريبٌ طريد....

5- وهناك الفتنةُ الكبرى. أكبر من هذا كله وأعنف. فتنةُ النَّفسِ والشهوة وجاذبيةِ الأرض، وثُقلة اللَّحم والدَّم، والرغبةِ في المتاعِ والسُّلطان، أو في الدَّعةِ والاطمئنان. وصعوبةِ الاستقامةِ على صراطِ الإيمان والاستواءِ على مُرتقاه، مع المعوقات والمثبطات في أعماقِ النَّفس، وفي ملابساتِ الحياة، وفي منطقِ البيئة، وفي تصوراتِ أهل الزمان!

فإذا طال الامدُ، وأبطأ نصرُالله، كانت الفتنة أشد واقسى. وكان الابتلاءُ أشد وأعنف. ولم يثبُت إلاَّ من عصم الله. وهؤلاءِ هم الذين يُحققون في انفُسهم حقيقة الإيمان، ويؤتمنون على تلك الامانة الكبرى، أمانةُ السماءِ في الأرض، وأمانة الله في ضمير الإنسان.

... وإنهم ليتسلمون الأمانة وهي عزيزةٌ على نفوسهم بما أدَّوا لها من غالي الثمن، وبما بذلوا لها من الصبر على المحنِ، وبما ذاقوا في سبيلها من الآلام والتضحيات. والذي يبذُل من دمه وأعصابِه، ومن راحته واطمئنانِه، ومن رغائبه ولذَّاته. ثم يصبِر على الأذى والحِرمان، يشعرُ ولا شكَّ بقيمةِ الأمانةِ التي بذل فيها ما بذل، فلا يسلمها رخيصة بعد كل هذه التَّضحيات والآلام.)[1]

الظلال(سورة العنكبوت) 2720/6- 2721[1]

في قصَصِهم عِبرة

أيها الفارِس!

لا يهولنَّك الأمر، واحذر أن يُقعِدك الخطب، ودع عنكَ استعجال القِطاف فإنَّه مدخلٌ من مداخل العجلةِ سُرعان ما ينزلِق السائرُ في طريقها ويتعثر فمَنْ اسْتَعْجَلَ شَيْئًا قَبْلَ أَوَانِهِ عُوقِبَ بِحِرْمَانِهِ ، وعليك بالتَّأني والاعتبار (فهذا نوحٌ عليه السلام يُضرب حتى يُغشى عليه، ثم بعد قليلٍ ينجو في السفينة ويَهلكُ أعداؤه. وهذا الخليلُ عليه السلام يُلقى في النَّار، ثم بعد قليلٍ يخرج إلى السلامة. وهذا الذَّبيح يَضْطَجِعُ مُستسلماً ثم يَسلَم ويبقى المدح.

وهذا يعقوبُ عليه السلام يذهبُ بصرُه بالفراق، ثم يعودُ بالوصول. وهذا الكليمُ عليه السلام يَشتغل بالرعي ثم يَرقى إلى التكليم. وهذا نبيُنا محمد – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- يقال له بالأمس اليتيم، ويُقلَّبُ في عجائب يُلاقيها من الأعداء تارة، ومن مكائدِ الفقر أخرى، وهو أثبتُ من جبل حِراء. ثم لما تم مرادُه من الفتح، وبلغَ الغرض من أكبرِ الملوك وأهل الأرض، نزل به ضيف النُّقلة، فقال: واكرباه. فمن تلمَّح بحر الدنيا، وعَلِم كيف تُتَلَّقى الأمواج، وكيف يُصبر على مدافعة الأيام،لم يَسْتَهوِل نُزول بلاءٍ، ولم يَفْرح بعاجِلِ رخاء)[1]

"أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَآءُ وَالضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاإِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ"

فاصبِر !! وإلاَّ فإنَّها ضخامةُ الجُهد وضآلةُ الحصيلة

---

[1] صيد الخاطر/1/ 175

الوصية التاسعة عشر

لا تغلبنَّك نفسُك



همسٌ يدورُ في خَلَدِكَ..

فتتفاعلُ معهُ روحُكَ، وتنشُطُ له أحاسيسُكَ، وتتنفَّسُ معه مشاعِرُك وألامُكَ..

همسٌ يأتي من بعيدٍ:

ما الذي بهذا الطَّريقِ أغراني؟!

لِمَ أقحمتُ نفسي في شِعبِه ووِديانه؟!

ألم يكُن من الخيرِ لي أن أسيرَ كغيري مُذعِناً وراضياً ومُتقبِّلاً للواقعِ؟!

ما ضرَّني لو عِشتُ كغيري أصبرُ على القهرِ والذُّل، وأسكتُّ عن الظُّلمِ والبغيِّ ؟ وكلَّما ازدادَ الأمرُ بالغتُ في الصَّبرِ والكِتمان!!

ها أنا ذا فقدتُ حريَّتي، وربَّما يسيلُ دمي فيُطْفِئُ ما اشتعل في جنبيَّ من نيران؟

ثمَّ ما النتيجة؟!

الظُّلم هو الظلم لن يهزِمْهُ موتي أو سِجني أو طردي!!

وركبُ البغي ماضٍ ما ضرَّه شاةٌ اجتثت من القطيع!!

إنَّها تساؤلات تنمُّ عن كربٍ عظيمٍ تعيشُهُ، وزلزلةٌ كبيرةٌ تمرُّ بها، وموقفٌ حرجٌ يُسيطِرُ عليك..

نعم! إنَّهُ صراعُ النَّفسِ، وصِراعٌ مع النَّفس. صِراعٌ قد تعيشُه وتشعُرُ به؛ فهي طبيعةُ النَّفسِ البشريَّةِ الضعيفة. النَّفسُ التي تُحبُّ السَّلامة وتبحثُ عنها وتتمنَّاها..

صراعٌ تخوضهُ فترةً بعد فترة، وتاةً بعد أُخرى

فتارةً بسببِ الأخطاء التي تراها في العمل ..

وتارةً بسببِ المحنِ والابتلاءات القاسيةِ التي تمرُّ بك..

وتارةً بسبب طول الطَّريق وإبطاءِ النَّصر..

وتارةً بسببِ ضعفٍ تعيشُهُ روحُك، ويمرُّ به قلبك..

وتارةً بسبب :

أولاً: الإعلامِ الذي يصرخُ صباح مساء، لا يفتُرُ من الذَمِّ والتَّشكيكِ والتَّصيدِ والتَّشويه..

وثانياً:جماعةُ المثبِّطين المخذِلين، والذين لم يكْفِهم قعودهم وتخاذلهم حتَّى دفعهم حنقُهم للتَّهويلِ والتَّضخيم من عواقب الأمور!!

أيها الفارس:

لاتظُن أنَّ هذا الصِّراع النَّفسيَّ مهما بلغ من العُنفِ يُعتبرُ علامةً فارِقةً بين الصِّدقِ والكذب، أو بين الثباتِ والنُّكوص، أو أنَّه انكسارٌ وهزيمةٌ روحيَّة. كلا! فالأمرُ يبقى في حدودِهِ الطبيعيةِ، بشرط أن لا ينتقِل إلى مراحل أخرى، وهي الاستجابةُ لهذا الصِّراعِ ومن ثَمَّ الاستسلام له والهزيمة أمامه.

متى نصْرُ الله

لقد مرَّ في هذا الصِّراع - وبأشكالٍ مختلفةٍ- غيرُكَ ممن سار في هذا الطَّريق – أعني طريق الإيمان والجهاد والدَّعوة- وتساؤلوا رُبَّما بنفسِ تلك التساؤلاتِ أو بمعناها!! ولكنَّهم تجاوزوها حين لم يركنوا إليها وينكسِروا أمامها.

"هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً" إنَّها الزَّلازِلُ إذاً!

وأنت حينَ تُحدِّثك نفسُكَ بهذه الأمور والتي يدفعُ بها الشَّيطانُ دفعاً إلى ميدانِ الرَّوحِ ليهزمها، يجبُ أن تعلم عدَّة أمور:

1- أنَّ العقيدةَ أسمى من أن تَضَعها في كفَّةِ الدُنيا التي ترى أنَّها سُحبتْ من يديك!! فأصحابُ العقائِد والمبادئ والأفكارِ-بصدقٍ- هم الذين يُضحون من أجلها، ويعملونَ جاهدين على إحيائها في عالم الواقع ولو كلَّفهم ذلك حريَّتهم بل حياتهم.

2- أنَّك لست وحدك في هذا الطَّريق، وأنَّ ما أصابكَ أو قد يُصيبكَ، قد أصاب من كان قبلك بل بأشدِّ مما تُلاقيهِ وتتوقعهُ!! حتَّى أنَّ خباب بن الأرت -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- جاء إلى النبي - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- وقد لاقى ما لاقى!! واجتمعت عليهِ نفسُه وألامُه وجِراحُه وعذاباتُه، وانطرح بين يديه عليه الصلاة والسلامُ يسبِقُهُ لسان حالهِ قبل لسان مقاله: "يارسول الله، ألا تَسْتَنْصُرُ لنا، ألا تَدْعو الله لنا"؟!! فردَّ عليهِ الواثِقُ بالوعدِ، المتيقِنُ من النَّصر:" كان الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ له في الأرض، فَيُجْعَلُ فيها فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ على رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ ما دُونَ لَحْمِهِ من عَظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إلا الله أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"[1]

3- أنَّ من الطَّبيعي أن يَجِد صاحبُ الحقِّ أعداءً يُناوِؤونه، ويُحاربونه، وهذا يعني دليل حركةٍ وحياةٍ في المنهجِ الذي تحمِله، والفِكرةِ التي تعيشُ من أجلِها، وإلاَّ فإنها السَّطحيةُ التي يُعرِضُ عنها الجميعُ ولا يأبهونَ بها.

لقد شَعُرت قريشُ بِخطورةِ الكلمةِ التي يحملها عليهِ الصَّلاة والسلام، فلما قال لهم" أمُعطيَّ أنتم كلمةً واحدة لكم فيها خيرٌ، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم؟" ردُّوا عيه قائلين:" نعم لله أبوك كلمة نعطيكها وعشر أمثالها" فقال:" قولوا لا اله الا الله وحده لا شريك له" فنفروا من كلامه!! فما زالوا نافرين منه، محاربين له، صادِّين عنه كلَّ من أراد اللِّحاق به، أو الاستماع إليه، وحالوا سِجنه ونفيه وقتله "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ"[2]

أنَّ المِشاعِر التي تنتابُ الإنسانَ، والتَّساؤلاتُ التي تُطارِدُهُ أمرٌ طبيعيٌ -كما قلنا من قبل- ولقد حدث مثل هذا في غزوة الأحزاب لمن هم خير البشرِ بعد الأنبياء، وصوَّره الله تعالى تصويراً بليغاً "إِذْ جَآءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ

---

[1] رواه البخاري برقم 3416
[2] الأنفال 30

الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَاْ"[1] إنَّهُ تعبيرٌ مُصوّرٌ لحالةِ الخوفِ والكُربةِ والضّيّقِ, يُمكِنُ أن تتخيلُها بملامح الوجوه وحركات القلوب.

ولك أن تُطلقَ عنانكَ للأحاديث التي اختلجت قلوبَ الصَّحابةِ - رُضْوانَ اللهِ عَلَيْهِم- والهمس الذي تهامَسوه كلٌ مع نفْسهِ على حِدَة!!

(إنها صورةُ الهولِ الذي روَّعَ المدينةَ, والكربَ الذي شملها, والذي لم يَنجُ منه أحدٌ من أهلها . وقد أطبقَ عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب. من أعلاها ومن أسفلها . فلم يَخْتَلِفِ الشُّعور بالكرب والهول في قلبٍ عن قلب; وإنَّما الذي اختلفَ هو استجابةُ تلكَ القلوب, وظنُّها بالله, وسلوكُها في الشدة, وتصوراتُها للقيم والأسباب والنتائج . ومن ثَمَّ كان الابتلاءُ كاملاً والامتحان دقيقاً. والتَّمييزُ بين المؤمنين والمنافقين حاسماً لا تردد فيه.)[2]

نعم : فقد نجم النَّفاق، وأظهرتِ بعضُ القلوبِ ما فيها من خَبَثٍ وخُبْثٍ وتكلمتِ الألسُن - وهنا مربَطُ الفرس وهو نقلُ الحديثِ من النَّفسِ ليظهرَ على اللِسان- حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمروبن عوف: كان محمدٌ يعِدُنا أنْ نَأكُل كُنوز كِسرى وقيصر، وأحدُنا لا يَقْدِرُ أن يذهب إلى الغائط!!.

4- أنَّ الأيام دول، يومٌ لك ويومٌ عليك، يومٌ تدولُ ويومٌ تُدال، وأنَّ الواقعَ والنَّتيجةَ لا يُمكِنُ أن يكونا في صالحك دائماً "أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَآءُ وَالضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاإِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ"[3]

(وإنها لتجربةٌ عميقة جليلة مرهوبة.. إنَّ هذا السؤال من الرَّسول والذين آمنوا معه. من الرَّسول الموصول باللهِ، والمؤمنين الذين آمنوا بالله. إنَّ سؤالهم:"متى نصرُ الله؟" ليُصور مدى المحنة التي تُزلزل مثل هذه

---

[1] الأحزاب 10
[2] الظلال- سورة الأحزاب- 5/ 2837
[3] البقرة 214

القلوب الموصولة. ولن تكون إلاَّ محنةً فوق الوصف، تُلقي ظِلالها على مثل هاتيك القلوب، فَتَبْعَثُ منها ذلك السؤال المكروب:"متى نصرُ الله؟"..

وعندما تثبُت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة.. عندئذٍ تتمُّ كلمة الله، ويجيءُ النصر من الله: " أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ "..

إنَّه مُدخرٌ لمن يَستحقونَه. ولن يَستحقَّهُ إلا الذين يثبُتونَ حتى النِّهاية. الذين يثبُتونَ على البأساءِ والضَّراء. الذين يصمدون للزلزلِةِ. الذين لا يحنونَ رؤوسهم للعاصفةِ. الذين يَستيقنونَ أنَّ لا نصرَ إلاَّ نصرُ الله، وعندما يشاءُ الله. وحتى حين تبلغُ المحنةُ ذُروتها، فهم يتطلعون فحسب إلى "نصر الله"، لا إلى أي حلٍ آخر، ولا إلى أي نصرٍ لا يجيء من عند الله. ولا نصرَ إلاَّ من عند الله.

... إنَّ الصراع والصبر عليهِ يهبُ النَّفوس قوةً، ويرفعها على ذواتِها، ويُطهرها في بوتقةِ الألم، فيصفو عنصرها ويضيء، ويهبُ العقيدة عمقاً وقوةً وحيويةً، فتتلألأ حتى في أعينِ أعدائها وخصومها. وعندئذٍ يدخلونَ في دين الله أفواجاً كما وقع، وكما يقعُ في كل قضيةِ حق، يلقى أصحابها ما يلقونَ في أول الطَّريقِ، حتَّى إذا ثبتوا للمحنةِ انحاز إليهم من كانوا يُحاربونهم، وناصرهم أشدُّ المناوئين وأكبرُ المعاندين..)[1]

5- إنَّ نفسكَ التي حدَّثتك ذلك الحديث، وسارتْ بكَ إلى تلكَ الظُّنون، هي ذاتُها - إن كُنت صادِقاً- ستقولُ لكَ وبصوتٍ مُرتفعٍ مدوٍّ لا تستطيعُ أن تُخفيهِ أضلاعُك، ليصِلَ إلى كُلِّ الآذان:

تقولُ لك : إنَّ الحيـــاةَ لغايــةٌ ... أسمى منَ التَّصفيقِ للطُّغيانِ
أنفاسُكَ الحرَّى وإن هي أُخمِدت ... ستظلُّ تغْمُرُ أُفْقَهُم بِدخانِ
وقروحُ جسمِك وهو تحتَ سِياطِهم ... قَسَماتُ صُبحٍ يتَّقيهِ الجاني
دمعُ السَّجينِ هناكَ في أَغـــلالِهِ ... ودَمُ الشَّهيدِ هُنا سيلتقيانِ
حتَّى إذا ما أُفْعِمَتْ بِهما الرُّبا ... لم يبقَ غيرَ تَمَرُّدِ الفَيضانِ

---

[1] الظلال 1/ 219

ومِنَ العَواصفِ مايكونُ هبوبُهـا   بعدَ الهُدوءِ وراحــةَ الرُّبَّانِ
إنَّ احْتِدامَ النَّارِ في جَوفِ الثَّرى   أَمرٌ يُثِيرُ حَفِيظَةَ البُــركَانِ
وتَتَابُــعُ القَطَراتِ يَنْزِلُ بَعـــدَهُ   سِيْلٌ يلَ□يهِ تَدَفُّقُ الطُّوفَانِ
فَيَمُوجُ يَقْتَلِعُ الطُّغاةَ مُزمْجِــراً   أَقوى مِنَ الجَبَروتِ والسُّلطانِ[1]

أيُها الفارس:

إنَّ هماً كهذا الهمِّ الذي تحمِلهُ، لتنوؤ عن حمله الجِبال الشُّمُّ الرَّواسي!!

إذاً: فحديثاً كهذا الذي تُحدِّثُكَ بِه نفسُك ما هو- بالنسبةِ لكَ - إلاَّ كذرَّاتِ رملٍ أُلقيتْ في صحراءٍ شاسِعةٍ فما عساها أن تُؤثِّر؟، فروحكَ السَّامية العالية، لن تُزعزِعها الهمسات، بعد أن عجزت عن زعزعتها الصَّرخات.

إذاً: إنَّهُ حديثُ النَّفس فقاوِمهُ بِسموِّ الرُّوحِ و هِمَّتُها

الوصية العشرون
لا تتعصَّب إلاَّ للحق

التَّعصُبُ الحق إنَّما يكونُ للحق.

لا لرأيٍ.. لا لمذهبٍ.. لا لفِكرةٍ .. لا لفِكرٍ .. لا لمنهجٍ .. لا لجماعةٍ .. لا لِشخص.

[1] ديوان هاشم الرفاعي

هكذا هي طبيعةُ النُّفوس السليمة المستقِرة الواثِقة. وهذه هي طبيعةُ الشَّخصيةُ المستقلةُ المتجردة. وهذا هو طريقُ النَّجاح والانتصار.

إنَّ التَّعصب لغير الحقِ يُعمي ويَصُم، وأنَّا لطالِبِ حقٍّ أن يَجِدهُ إنْ كانَ أعمىً أصماً؟!

وفي المستدركِ مرفوعاً:"يا عبد اللهِ بن مسعود هَلْ تَدْرِي أَيّ النّاسِ أَعْلَم؟" قلت: الله ورسوله أعلم، قال: "فَإِنَّ أَعْلَمَ النّاسِ أَبْصَرُهُمْ بِالحَقّ إِذا اخْتَلَفَتِ النّاسُ، وَإِنْ كانَ مُقَصِّراً في الْعَمَلِ، وَإِنْ كانَ يَزْحَفُ على اسْتِهِ"[1]

هكذا يُبصِرُ الحقَّ كلَّ من لم يكُن لديه هوىً ولا حميةً ولا عصبيةً لمذهبٍ، أوفِكرٍ، أو فِكرةٍ، أو جماعةٍ، أو شخصٍ. إنّما عصبيتُه للحقِ أينما كان، ومع أيّ كائنٍ كان. هذا هو من صَفَتْ غريزتُه عن أن تتكدَّر بذلِكَ المرضِ الذي يُصيبُ النُّفوس والقلوب. فلم يكن له مأربٌ ولا مقصد إلا مجرد معرفةِ الصَّوابِ، والسَّيرِ في طريق الحقِ، فظَفَرَ بذلك بسهولة من غير مشقةٍ ولا تعب.

لا يُفسِدُ للودِّ قضية

قد نختلِفُ في أُطروحاتِنا، وفي أفكارِنا، وفي طريقةِ عملِنا، ولكن لا يُمكِن أن تختلِف قلوبُنا، ونتناحَرُ على مذْبحِ أهوائِنا، ولِسانُ حالِ كُل مِنّا: الحقُّ عندي لا عِندَ غيري!!

سرى فِيكم داءُ التَّعصُّبِ والهوى فَصُرتُم بِهِ صُمّاً عن الحقّ عُميانا[2]

إنَّ الأخلاقَ الإسلاميةَ تأبى علينا هذا المسلك، وتنأى بنا عن هذا الطَّريق، كما أنَّ نِيَّاتنا إن كانت صادقةً لا يُمكِنُ أن تدفعنا إلى إلى هذا المصير.

إنَّ المجاهِد في سبيلِ اللهِ السَّاعي إلى الحقّ لا يُمكِن أن يحيدَ عن الحق، والداعي إلى العدلِ لا يُمكنُ أن يقعَ في الظُلم، وهل أظلمُ ممن ادَّعى الحقَّ وجعلهُ حِكراً على نفسِهِ وطريقتِهِ؟!

---

[1] رواه الحاكم في مستدركه برقم 3836

[2] ديوان ابن الشهاب

وهل فكَّر أمثال هؤلاءِ ما يُمكن أن ينتُج عن هذا التَّعصب البغيض من آثارٍ أقلُّ أضرارها الانشغالُ عن الهدفِ بالانتصار للنَّفس، وردِّ الحقِّ بِاتباعِ الهوى؟!

أمَّا إن أردت أن تعرِف أكبر أضراره فاستمِع إلى ما يقولُه الزرقاني رحمه الله:

(واعلم أنّ هناك أفراداً بل أقواماً تعصَّبوا لآرائهم ومذاهبهم، وزعموا أنّ من خالف هذه الآراء والمذاهب كان مبتدعاً متَّبعاً لهواه، ولو كان متأوِّلاً تأويلاً سائغاً يتسع له الدليل والبرهان. كأن رأيهم ومذهبهم هو المقياس والميزان، أو كأنَّه الكتاب والسنة والإسلام. وهكذا استزلَّهم الشيطان وأعماهم الغرور.

ولقد نجم عن هذه الغلطة الشنيعة أن تفرَّق كثيرٌ من المسلمين شِيعَاً وأحزاباً، وكانوا حرباً على بعضهم وأعداءً. وغاب عنهم أنَّ الكتاب والسنة والإسلام أوسع من مذاهبهم وآرائهم، وأن مذاهبهم وآراءهم أضيق من الكتاب والسنة والإسلام، وأن في ميدان الحنِيْفِيَّةِ السمْحَة متسعاً لحرية الأفكار، واختلاف الأنظار، ما دام الجميع معتصماً بحبل من الله. ثم غاب عنهم أنَّ الله تعالى يقول: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوانا" (آل عمران: 103) ويقول جلَّ ذكره:"إِنَّ الذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْء" (الأنعام: 159) ويقول تقدَّست أسماؤه:"وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوه" (آل عمران: 105)[1]

والمتعصبُ يسير في طريقٍ مُظلمٍ لأنه معصوب العينين، لا يسمعُ نداء الحقِّ لأنَّه مسدودَ الأذنين، قد جرَّهُ هواه إلى مُنزلقٍ سحيقٍ حين حكمَ على مخالِفيهِ بالابتداعِ والهوى والنِّفاقِ بل بالكفر!!

أَرى التَعَصُّبَ أَبدى مِنكَ داهِيَةً ‌‌ كانَت تَحَجَّبُ دونَ الوَهمِ بِالحُجُبِ[2]

(لِمثل هذا أرْبَأُ بنفسي وبك أن نتّهم مسلماً بالكُفر أو البدعة والهوى لمجَرَّدِ أنَّه خالفنا في رأيٍّ إسلاميٍّ نظري، فإن التزامي بالكفر والبدعة من أشنعِ الأمور. ولقد قرَّر علماؤنا أن الكلمةَ إذا احتملت الكُفرَ من تسعةٍ وتِسعينَ وجهاً، ثمَّ احتملت الإيمان من وجهٍ واحدٍ، حُمِلَت على أحسنِ المحامِل وهو الإيمان. وهذا

[1] مناهل العرفان2/ 40
[2] ديوان ابن الزيات

موضوع مفروغٌ منه ومن التدليل عليه. لكنْ يَفُتُّ في عَضُدِنا غفلة كثيرٍ من إخواننا المسلمين عن هذا الأدب الإسلامي العظيم، الذي يَحفظُ الوِحدة، ويحمي الأُخْوَّة، ويُظهر الإسلامَ بصورته الحسنة ووجهه الجميل مِنَ السَّماحة واليُسر، واتِّساعِه لكافَةِ الاختلافات الفِكرية والمِنَازِعِ المذهبية، والمصالح البشرية، ما دامت مُعتصمةً بالكتاب والسنة على وجه من الوجوه الصحيحة التي يحتملها النظر السديد والتأويل الرشيد.)[1]

طريقٌ يستوعِبُ الجميع

الجهادُ وكما قلتُ مراراً(مشروعُ أمَّة) لا ينبغي خَطْفُهُ أو احتِكارُه، فالأمةُ مدعوةٌ وبقوَّةٍ للمشاركةِ فيه بجميعِ فئاتِها وتَخصُصاتِها، حيثُ يُخطِئُ من يَظُنُّ أنَّ الجِهاد حملٌ للسِّلاحِ ومقارعةٌ للأعداءِ وكفى!! فهذا يعني أنَّ ثقافةَ القتلِ والتَّخريبِ هي التي تدفعُنا، لا ثقافةُ الحياةِ والبِناءِ!! ويُخطئُ ثانياً من يَظُن أنَّ المجاهدَ ليس معنِيَّاً ببناءِ الدَّولةِ ومؤسساتِها، وترسيخِ عوامل نهضتِها وتقدمِها ورُقيِّها، وليس معنياً بنشرِ الثَّقافةِ والعلمِ والمعرفةِ، وتأمينِ حياةٍ أفضل لكلِّ من يعيشُ بالإسلامِ وفي دولةِ الإسلام، وليس معنياً برسمِ الصُّورةِ الحقيقيةِ للجهادِ وحملِ السِّلاح حيث العدل لا الظُّلم، والبِناءُ لا الهدم، والأمنُ لا الخوف، والرحمةُ لا العذاب، والاجتماعُ لا الفُرقة. وهذا كلُّه واضِحٌ ملموسٌ في تاريخِنا. وهذا ما شهِدت به الأعداء حينَ تُفتحُ بلادُهم على أيدي المجاهدين فيرون الرَّحمة، ويلمسون الأمن الذي افتقدوه على أيدي بني جلدتهم.

لذلك لا بُدَّ للسَّماحِ للأمة من المشاركةِ في هذا المشروعِ الضَّخم المستمر إلى يوم القيامة، وأن لا يدَّعي البَّعضُ الاستغناءَ عن غيره من إخوانِه، فنحنُ لم نصِل بعدُ إلى حدِّ الاكتفاءِ الذي يجعلُنا قادرين على الوفاءِ بكُلِّ متطلبات الجهاد من إعدادٍ وعملٍ وبناءٍ، ولم نمتلك بعدُ الخبرات والإمكانيات والكوادر المؤهَلَة في جميعِ المستوياتِ وعلى جميع الأصعِدة والأُطر، لكي نتحركَ في الظَّرْفِ الصحيح، والزَّمانِ الصحيح والمكانِ الصَّحيح، ولكي نأتي بالنتيجةِ الصَّحيحة، والثَّمرةِ المرجوَّة. وهذا لا يَعني التَّعقيد والتَّقييد، بل يعني الانضباطَ، وعدم التَّفلت، واستسهالِ الأمور وخوضِها دونَ دراسةٍ واقِعيَّةٍ تُرجَعُ فيها الأمور لأهلِها

[1] نفس المصدر السابق

لِيُشارك كلٌ في تخصُصِهِ ومجالِهِ وفنِّه، لتُنتج عملاً مُكتملاً ومُتكاملاً إلى أبعدِ حدٍّ، ويتحمَّلُ كلٌ فيه مسئوليته. وهكذا يُمكِنُ أن يُفهم معنى قولُه تعالى:"وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ"[1]مع غيرِه من المعاني (فهي حدود الطَّاقة إلى أقصاها. بحيث لا تقعد العُصبةُ المسلمة عن سببٍ من أسبابِ القوَّةِ يدخُلُ في طاقتها)[2]، وإنْ كان أصلُ القوَّةِ الرمي كما أخبر النبيُّ- صلَّى اللهُ عَليْهِ وسَلَّمَ- فإنَّهُ ولا شكَّ يدخلُ في المعنى أيضاً كلَّ قوةٍ تكونُ مُساندةً للقوَّةِ الرئيسية.

ولن يكونَ ما أدعو إليهِ ويدعوا إليهِ كلَّ غيورٍ على المسيرةِ – من مُشاركةٍ شاملةٍ – إلاَّ بتركِ التَّعصُب إلى الاعتقادِ بصدقِ الآخر وحِرصِه، والقبولِ برأيه الآخرين وإشراكهم، ما دُمنا نعلمُ صدقهم وحِرصهم حتَّى لو كانوا يُخالفوننا في بعضِ الآراء، ويَخْتلفون معنا في بعضِ النِّقاط، لأننا وبكلِّ بساطةٍ لا يُمكنُ أن نجِد من يوافقنا دائماً، لأننا لا يُمكنُ أنْ نكونَ على الصوابِ دائماً، فالخطأُ والقُصورُ من طبيعةِ البشرِ، وطبيعةِ العمل البشري .

كُن واقعياً

إنَّ من يظُنُّ أنَّه لا يُخطئُ فإنَّه خاطئ، ومن يظُنُّ أنَّهُ لا يفشلُ فهو فاشِل، ومن يُسفِّهُ آراء الآخرين ويستصغرُها فقد صغَّر نفسهُ قبل ذلك، وضيَّع على نفسِهِ فرص الاستفادةِ والنَّجاح. إنَّ غياب الواقعيةِ عنِ المرءِ أو الجماعةِ لا يخرجُ سببه عن أمرين: الجهلُ أو الغرور، وما ينتُجُ التَّعصبُ غالباً إلاَّ من هذينِ السَّببين، وربما نشأ من أسبابٍ أُخرى أعرِضها عليك لكي تتوخَّاها وتتجنبها ومنها:

1- حُب الشَّرفِ والمال.
2- المنافسةُ بين الأقران(أفراداً كانوا أم جماعات).
3- حبُّ الظهور.
4-الجِدالُ والِمراء.

---

[1] الأنفال 60
[2] الظلال–سورة الأحزاب–

5-التَّعصب للأشخاص.

6-صعوبة الرجوع إلى الحق بعد القولِ بخلافه.

7-استصغارِ المنافِس والقائلِ بالحقِّ كونه صغير السِّن أو الشأن

8-تغليبِ الظن السيئ.

9- عدم الموضوعية في عرض حجج الآخرين.

أيها الفارس:

إنَّ هذا كُلَّه لا يتوافق والشخصيةُ المجاهدة التي خرجت من حظوظِ نفسِها، وتجردت لله خالقها، وطلبت الحقَّ لِتُعطيه وتُطبِّقه. والواقعيةُ التي نُريدُها هي أن ترى الحقَّ حقاً فتتَّبِعه ما دام فيهِ الخير والفائدة.

وتبَّصر معي في هذه الحوادِث التي تُعطي الدَّرس الأكبر للمُتعصبين لآرائهم، المتشبثين بطريقتِهم، العاضِّين بنواجذهم على أفكارهم وإن كانت خاطئة، وتقولُ بصوتٍ عالٍ: كم فوَّتُم على أنفسِكم من الخير، وكم ضيَّعتم من النَّجاحات، وكم تأخَّرتُم وأخرتُم عندما تصَّلبتم في آرائكم، وتعصَّبتم لقراراتكم، وصددتُم عن مسلكِ الكِبارِ وطريقِهم وطريقتهم:

1-(نزل النبيُّ – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- عند أدنى ماءٍ من بدر، فقال الحباب بن المنذر ابن الجموح:يا رسول الله أرأيت هذا المنْزِلَ أمنزِلاً أنزلَكَهُ اللهُ ليس لنا أن نَتقدَّمَهُ ولا نَتَأخر عنه؟! أم هو الرأي والحربُ والمكيدة؟. قال: بل هو الرأيُ والحرب والمكيدة. فقال: يا رسولَ الله فإِنَّ هذا ليسَ بِمنزِلٍ فانْهض بالنّاسِ حتىَّ نأتي أدنى ماءٍ من القومِ فننْزِلهُ، ثم نَغور ما وراءه من القِلَبِ، ثم نَبْنِي عليه حوضاً فنملؤهُ ماءً، ثم نُقاتل القوم فشرب ولا يشربون فقال رسول الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- لقد أشرت بالرأي فنهضَ رسولُ الله – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- ومن معه من الناس فسارَ حتى إذا أتى أدنى ماءٍ من القومِ نزل عليه، ثم أمر بالقِلب فغوِّرت، وبني حوضاً على القِلب الذي نزل فمُلئ ماءً، ثم قَذفوا فيهِ الآنية.)[1]

[1] سيرة ابن هشام3/ 167

2- أراد سعد بن معاذ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أن يُؤمّن النبيَّ - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- في غزوة بدر لِمصلحةٍ رآها كقائدٍ عسكريٍّ له تجربته وحِنكته فقال:(يا نبي الله ألا نَبْتني لك عريشاً تكونُ فيه، ونُعِدُّ عِندكَ ركائبكَ، ثم نَلْقى عدوَّنا، فإن أعزَّنا اللهُ وأظهرنا على عدوّنا كان ذلك ما أحببنا، وإنْ كانتِ الأُخرى جلستَ على ركائبِك فلحقتَ بِمن وراءَنا، فقد تَخَلَّفَ عَنْكَ أقوامٌ يا نَبيَّ اللهِ ما نَحْنُ بأشدَّ لكَ حُبَّاً منهم، ولو ظنُّوا أنَّك تَلْقى حرباً ما تخلَّفوا عنكَ، يَمْنَعُكَ اللهُ بِهم، يُناصحونَكَ ويجاهدون معك. فأثنى عليهِ رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- خيرٌ ودعا له بخير، ثم بُني لرسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- عريشٌ فكانَ فيه.)[1]

3-أَخْذُ النبيّ - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- برأي سلمان الفارسي -رَضِيَ اللهُ عنهُ- في حفرِ الخندقِ، وكان رأياً صواباً مؤثِراً حتى قالت الأحزابُ: واللهِ إنَّ هذِه لمكيدةٌ ما كانتِ العربُ تَكيدُها.

من الذي أشار، ومن الذي أخذ بالمشورة؟

من الذي أبدى الرأي، ومن الذي قَبِله؟

المشيرون هم الجنودُ، وأصحابُ الرأيِّ هم الأفراد!!

والآخذُ بالمشورةِ، والقابلُ للرأيِّ الآخر هو محمدٌ -صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ-!! ما منعتُهُ نبوتُهُ ولامكانتُهُ ولاعِصمتُهُ من أن يأخذ برأي الآخرين ويَستفيدَ مِنه، ليؤكِّد بذلكَ على أنَّ الحقَّ أحقُ أن يُتَّبع، والصَّواب أولى أن يُقدَّم، ولن يَضيرَ المرء أن يأخُذ برأيِ غيرِه ما دام حقَّاً وصواباً، وأنَّ الضيرَ كلَّ الضيرِ بالتَّعصُبِ للرأي والاستبدادِ بالقرار.

أيُها الفُرسان:

إنَّ التَّعصُب مُمْحِقٌ للبركةِ، شاغلٌ عن الهدف، دافِعٌ إلى الفِتن المفضيةِ إلى سفكِ الدِّماءِ وهتكِ الحُرَمِ، وتمزيقِ الأعراضِ، واستحلالِ ما هو في عصمة الشرع ما لا يخفى على عاقِلٍ.

---

[1] نفس المصدر3/ 168

وقد ينتهي التَّعصبُ بأصحابِهِ إلى ما هو من أنواع الجنون والحماقاتِ القبيحة. ومن أراد العتبار والادِّكار فعليهم بالرجوع إلى كُتبِ التَّاريخ والتي امتلأت بمثلِ تلك الاحداث المؤسفة المؤلمة.

وعليه فاعلموا أنَّ:

منهجَ الإِسلامِ أَسْمَى مِن دَعاوى الجَاهِلِيَّة وَهُدَى الإِسلامِ أَسْنَى مِن ضَلالِ العَصَبِيَّة.[1]

[1] ديوان وليد الأعظمي

الخاتمة

أيُّها الفارس!

لنْ أُطيل عليك في خاتِمتي لتلكَ الوصايا الغاليةُ على قلبي، لأنني أوجِّهها لغالٍ على قلبي.

فهذِهِ وصايا بين يديكَ تُعينُكَ بإذن اللهِ تعالى على أن تكونَ مُتميّزاً بين النَّاسِ وهذا ما ينبغي أن يكون عليهِ حالُك. فاقرأها بِتمعنٍ، وناقِشها بروّيةٍ، وطبِّقها بِتدرُّج، فهي

- إن لم تنفَعكَ فلن تضرُّك.
- وإن لم تُعِنْكَ فلن تُعيقُك.
- وإن لم تُحلّقْ بك فلن تُقعِدُك.
- وإن لم تجِد فيها خيراً فلن تجِد فيها بإذنِ الله شرّاً.

واللهُ أعلم

وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلهِ الأطهار وصحابتِه الأخيار ومن سار على هديهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدِّين.

كتبه:
أبو يوسف سليمان جاسم بوغيث